سورة الشرح

مكية وهي تسع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية بلا خلاف (فتح البيان). ويرى القس "ويري" أن زمن نزولها هو نفس زمن السورة السابقة بدليل اشتراكهما في الموضوع.. فزمنها عنده السنة الأولى أو الثانية من البعثة. (تفسير "ويري" للقرآن)

الحق أن اعتراف الكتاب الغربيين بهذا الأمر لانتصار عظيم للإسلام، لأن هذه السورة تحتوي على أنباء عظيمة لا يبقى بعد الاعتراف بها شبهة في صدق الإسلام؛ مع أنه كان بإمكانهم أن يُخفوا هذه الأنباء باعتبارهم هذه السورة مدنية.

وعندي أن هذه السورة نزلت في السنة الثالثة أو قريبا منها.

الترتيب والترابط:

إن أول صلة لهذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد أخبر في السورة السابقة عن حسن عاقبة محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولى﴾.. فهو ملخص السورة السابقة؛ إذ ذُكر نتيجةً للأدلة والبراهين المذكورة هنالك، أما هنا في سورة الشرح فقد ألقى الله المزيد من الضوء على ما أعلنه من قبل من حسن عاقبة محمد رسول الله ﷺ، فاستمرارًا لموضوع السورة السابقة قد أوضح الله تعالى هنا أن هناك علامات معينة لحسن العاقبة؛ فمن وُجدتْ فيه تبيّن أنه مؤيد من الله تعالى.. أي سترون في النهاية أن عاقبة محمد ﷺ ستكون محمودة، غير أنكم تستطيعون الآن أيضا إدراك ذلك ببعض علاماته الواضحة. ثم ذكر الله تعالى أربع علامات بارزة لمن تكون عاقبته حسنى؛ أولاها: كونه منشرح الصدر حول دعاويه، الثانية: تيسُّر الأسباب له لتحقيق الغاية التي قام من أجلها، الثالثة: توجُّه الناس إليه، الرابعة: أن تتيسّر له هذه الأسباب بتقدير إلهي. فمن توفرت فيه هذه

الأمور الأربعة أدرك الناس منذ البداية أنه غالب حتمًا. ويقول الله تعالى لرسوله الكريم إنك يا محمد تتمتع بهذه المزايا الأربع فيجب أن يدرك معارضوك أن عاقبتك تكون حسنى حتمًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

ألَمْ نَشْرَحْ: شَرَح يشرَح اللحمَ شرْحًا: قطَعه طِوالاً. وشرَح الغامضَ: كشَفه وفسّره وبيّنه. وشرَح الشيءَ: فتَحه ووسّعه. وشرَح الكلامَ: فهَّمه. وشرَح صدرَه بالشيء وللشيء: سَرَّه به وطيَّب به نفسَه. (الأقرب)

وقال صاحب المفردات: "أَصْلُ الشرحِ بَسْطُ اللحم ونحوه، ومنه: شرْحُ الصدر أي بسْطُه بنور إلهي وسكينةٍ مِن جهة الله ورَوحٍ منه."

الظاهر أن هذا المعنى الأخير تفسيريٌّ لا لغويٌّ، لأن شرح الصدر لا يكون من الله تعالى فقط، بل يقول الإنسان أيضًا لصاحبه بعد سماع كلامه: قد شرحتَ صدري، أي قد فهمتُ الأمر الآن جيدا.

وقد ورد في "تاج العروس" وهو أكبر قاموس عربي: "شَرَحَ كمَنَعَ: كَشَفَ، يقال شرَح فلان أمرَه: أي أوضحَه. وشرَح مسألةً مشكِلةً: بَيَّنَها، وهو مجاز. شَرَحَ: قَطَعَ اللحمَ عن العضو قطعًا، وقيل: قَطَعَ اللحمَ على العظم قطعًا كشرَّح تشريحًا في الأخير. شرَح الشيءَ يشرحه شرحًا: فتَح وبيَّن وكشَف. وعن ابن الأعرابي: الشرحُ البيانُ والفهمُ والفتحُ والحفظُ. وشرَح البِكْرَ: افتَضَّها. شرَح الله

صدره لقبول الخير يشرحه شرحًا فانشرح: أي وسعه لقبول الحق فاتسع. وشَرَح إلى الدنيا: مال إليها".✦

صدرك: "الصدرُ أعلى مقدَّمِ كلِّ شيء، ومن الإنسان ما دون العنق إلى فضاء الجوف، وكذلك من الفرس والبعير ونحوهما. والصدر أولُّ كلِّ شيء كصدر النهار وصدر الصيف وصدر الشتاء." (الأقرب)

وكأن الصدر من الأضداد، فيطلق على ذروة كل شيء، وأيضًا على أول كل شيء، وأول كل شيء يكون أدنى عادةً، فمثلا أول النهار الصبح أقلُّ ضوءًا من الظهر.

ثم ورد: "وصدرُ القوم: رئيسهم ومقدَّمهم" (الأقرب).

وفي لغتنا يستخدم هذا اللفظ للإعزاز والتكريم، فيقال أجلسوا فلانا في صدر المجلس، واختيرَ فلان صدر المحفل.

ثم ورد: "والصدر: الطائفة من الشيء، تقول أخذتُ صدرا منه أي طائفةً وجزءًا منه. وربما سُمّي القلب صدرا لكونه فيه" (الأقرب).

أما انشراح الصدر فهذا التعبير يوجد في كل قوم وبلد، فإذا اطمأن المرء بشيء عبّر عن اطمئنانه وسكينته بانشراح الصدر. وفي اللغة الأردية أيضا يقولون لقد انشرح صدري لكذا. ولا نأبه لقول الأطباء ما العلاقة بين الصدر وفهمِ المرء أمرًا ما واطمئنانه به، إنما الصدر عبارة عن قفص عظمي يضم القلب والرئة والكبد والمريء، فأي علاقة لهذه الأشياء بفهم كلام والاطمئنان إليه. فإننا نقول: لا شك أن هذه الأشياء تسمى صدرًا في الطب، ولكن انشراح الصدر يعني لغويًا اطمئنان المرء بشيء، وانقباضه يعني عدم اطمئنانه وحزنه. أما لماذا يُستخدم هذا التعبير هكذا؟ فالجواب عليه من مسؤولية أهل اللغة وليس أهل الدين. لقد رأيت أن بعض

✦ لم نعثر في "التاج" على العبارة التي تحتها الخط، غير أنه ورد في "المنجد" ما يلي: "وشرَح إلى الشيء: أظهرَ الرغبةَ إليه، يقال: فلان يشرح إلى الدنيا.. أي يُظهِر الرغبة إليها." (المترجم)

الناس يقحمون المسائل اللغوية في أمور الدين بسبب غبائهم فيتعثرون كما يسببون العثرة للآخرين. فمثلا عندما يقال في لغتنا لقد وقع هذا في قلبي فلا يقول عاقل هل يقع الأمر في القلب أم في الدماغ، ذلك أننا مضطرّون لاستخدامه إذ إن هذا التعبير موضوع في اللغة لأداء هذا المفهوم، فإن شخصا إذا قال قد وقع هذا الأمر في قلبي فمعناه أنه خطرت بباله فكرة جديدة، وكل إنسان يخطر ببالـه فكـرة جديـدة يستخدم هذا التعبير الموضوع في اللغة سواء كان عالما أو جاهلا أو فيلسوفا أو عالِمَ تشريحِ أبدان. أما السؤال هل تنشأ الفكرة في القلب أو الرأس أو الرِّجل فلا داعي أن نخوض في ذلك من حيث اللغة، ومع ذلك يبدأ البعض هـذا النقـاش خطـأً ويقولون كيف يمكن أن يقع الشيء في القلب أو ينشرح الصدر؟ فلـيعلم هـؤلاء المعترضون أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية، فنحن مسؤولون عما إذا كـان المعنى الذي نذكره لكلمة قرآنية مطابقا للغة العربية أم لا؟ ولكن لا يجوز سـؤالنا عما إذا كان هذا التعبير صحيحا أو خطأً بحسب علم الطب، لأن هذه المسؤولية لا تقع على القرآن الكريم بل على أهل اللغة. فإذا وضع أهل اللغة تعـبيرًا مـا لأداء مفهوم ما فنحن ملزمون باستخدام هذا التعبير نفسه سواء كان حقيقيـا أو غـير حقيقي. فإن أحدًا من الإنجليز –سواء كان شخصا عاديًا أو من علماء التشريح أو علماء النفس– إذا أراد التعبير عما يؤلمه قال it aches my heart أي أن هذا الأمر يوجع قلبي، مع أن الإحساس بالألم يكون في المخ الذي يميّز الأشياء لا في القلـب. كذلك إذا أرادوا التعبير عن أذى أصابهم قالوا my heart sank أي غرق قلبي. يـا تُرى، ألا يعلم هؤلاء الأساتذة والعلماء أن القلب لا يكون في بحر أو بئر أو ساقية أو نهر حتى يغرق فيه، ولكنهم مضطرون لهذه التعابير لأن أجدادهم وضعوها لأداء هذه المعاني. بل إنهم يقولون في بعض الأحيان my heart sank in my boots .. أي لقد غرق قلبي في نعالي.

وكذلك يعبرون عن إحساسهم بشيء بقولهم I felt in my heart مع أن المسلَّم به عندهم أن الشعور مكانه الدماغ لا القلب. وكذلك يقول هـؤلاء العلمـاء في رسائلهم إلى خطيبـاتهم وزوجـاتهم you always live in my heart ..أي أنـك

تعيشين في قلبي دائما، ولا يقولون أبدا you always live in my head.. أي أنك تعيشين في رأسي دائما، وربما لو قال أحدهم ذلك لخطيبته لفسختْ خِطْبته واعتبرتْه مجنونا.

فما دام الكلّ يستخدم هذه التعبيرات في لغته اليومية ولا يعترض عليه أحد، فلماذا يطعن هؤلاء الحمقى على ورود تعابير مماثلة في الكتب السماوية؟ عليهم أن يعترضوا على القوم الذين وضعوا هذه التعابير، أما الكتاب السماوي فهو مضطر لاستعمالها، وإلا لم يفهم الناس قصْدَه وفَشل الكتاب في تحقيق غايته. علينا أن نرى ما إذا كان العرب يستعملون كلمة القلب بمعنى الدماغ المعروف عند أطباء التشريح أم لا، فإذا كانوا يستعملونها للدلالة نفسها فلا يصح الطعن في القرآن الكريم لاستعماله كلمة القلب بدل الدماغ. أو علينا أن نرى ما إذا كان العرب يستعملون تعبير انشراح الصدر أم لا، فإذا كانوا يستعملونه فليس جائزا للقرآن الكريم استعماله فحسب، بل لا بد له من استعماله وإلا ماذا سيفهم الناس مما يقول؟

إن هذا العصر عصر التقدم العلمي وقد بلغ العلم الذروةَ وقام علماء التشريح بأدق البحوث، ومع ذلك يقول هؤلاء العلماء حتى اليوم: حُبّك في قلبي، ولو قال بعض شعرائهم: حُبّك في دماغي لضحِك عليه الجميع واعتبروه مجنونا. فمع أن ما قاله هو الحق طبيًّا، إلا أن أهل اللغة يستخدمون القلب للتعبير عن الحب ولذلك لو استعمل مكانه لفظ الدماغ لضحكوا عليه واعتبروه غبيًّا.

إذن لا يهمّنا ما يقول علماء التشريح، إنما يهمنا التعبير الذي وضعه علماء اللغة. واستعمال التعابير الرائجة في اللغة هو الفصاحة، ولو خالفها الإنسان سقط كلامه عن مستوى الفصاحة.

التفسير: رغم أن قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهام، ولكن المراد أنك تعرف جيدًا أننا قد شرحنا صدرك. ومثل هذا التعبير يسمى الاستفهام التقريري، ومثاله قول الشاعر: "ألستم خيرَ مَن رَكِبَ المطايا".. أي أنتم خيرُ مَن

ركب المطايا. والحق أن هذا التعبير يماثل القاعدة الرياضية: نفيُ النفي إثبات. فإذا قلت لأحد على سبيل الاستهزاء: أنت عالِم؟ فإنك تعني أنه ليس عالما. لكن لو قلت له: ألستَ عالما؟ فالمراد أنه عالم ومع ذلك يأتي ما لا يليق بالعالم، أو أنه عالم لكن الجهال يطعنون فيه. فليس المراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أن الله تعالى يسأل رسوله أشرحْنا صدرك أم لا، بل المراد أنك تَعلَم أننا قد شرحْنا صدرك وكذلك يعلم عدوُّك هذا الأمر.

قد يقال هنا: لماذا لم يستعمل الله تعالى هنا كلمات بسيطة وبأسلوب مباشر: قد شرحْنا لك صدرك؟

الجواب أنه لو قيل قد شرحنا صدرك لكان من الله خبرًا عاديًا بدون أن يؤدّي المفهومَ الكامن في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أعني لم يُعرَف ما إذا كان هناك نتيجة واضحة لشرح الصدر أم لا، وما إذا كان الرسول ﷺ أيضا قد أحسَّ بشرح صدره أم لا، وما إذا كان الكفار قد رأوا آيةً تدلّ على شرح صدره ﷺ أم لا. أما قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فهو تأكيد أننا قد شرحنا صدرك بحيث تدرك ذلك كما يدركه عدوك أيضًا.. أي أن هذا الأمر ظاهرٌ جليٌّ بحيث أصبح آيةً بيّنة لا يمكن إنكارها. وهذا المعنى الواضح لا يمكن بيانه بكلمات وجيزة إلا بهذا الأسلوب.

وأضربُ مثالاً آخر لبيان هذا الأمر. لنفترضْ أن شخصًا أتاني وأخبرني أنه قد أوصلَ إلى بيتي اللحم مثلا. هذا الخبر يفيد فقط أنه أوصل اللحم إلى بيتي، ولكنا لسنا على يقين ما إذا كان قد أوصله فعلاً أم لا؟ ولا يمكن لهذا الشخص أن يقول لي في هذه الحالة: ألم أوصل اللحم إلى بيتكم؟ ولكني لو ذهبت إلى بيتي ورأيت أن اللحم قد وصل، عندها يمكن له أن يقول لي: ألم أوصل اللحم إلى بيتك؟ إذ يعني بذلك: لقد أوصلتُ اللحم إلى بيتك وقد رأيتَ أنه قد وصل. فالاستفهام التقريري هو الذي قد أفاد هذا المعنى الإضافي بأن الأمر مؤكد بحيث إذا سمعه المرء صدّقه قائلا: نَعَمْ، إن ما تقوله صحيح، وأنا شاهد على ذلك. فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يتضمن تصديق المخاطَب أيضا.. أي أنّ مَن نخاطبه يعلم ما نقول ولا

يسعه إنكاره. فالمراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ يا محمد ﷺ بحيث أصبحت شاهدا على ذلك وتعلم جيدا أننا قد شرحناه فعلا.

إن قوله تعالى بأننا قد شرحنا صدرك بحيث أصبح أمرًا واضحًا بيّنًا لا يمكن إنكاره لجملةٌ وجيزة، لكنها مع إيجازها تشتمل على معان واسعة. وقد ذكرنا لدى شرح المفردات أن لفظ الشرح يعني الفتح والتوسيع والتفهيم والحفظ والبيان الجيد. وعليه فمن معاني قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أنك تعلم كما تعلم الدنيا أيضًا أننا قد شرحنا صدرك. ولما كان هذا التعبير يفيد التصديق والقبول لأمر جيد، فإذا مال قلب المرء لقبول الأمور الحسنة أو تيسرت له السكينة في أمر معين وأيقن به يقينا كاملا قيل انشرح صدره. وإذا بلغ يقينه إلى حد الكمال بحيث اعتبر إعجازا قيل إن الله تعالى شرح صدره. وإذا تيسرَ له اليقين الكامل بالأمور الغيبية التي لا يتيسر بها اليقين إلا بتصرف رباني فيقال أيضًا إن الله تعالى شرح صدره. والاستفهام التقريري -الذي هو إثبات في الحقيقة- يفيد هنا أن هذا الأمر ليس بخفي بل أصبح ظاهرًا جليًّا. ونظرًا إلى هذه المفاهيم كلها فستعني هذه الآية أن الله تعالى قد منح محمدا ﷺ بشاشة القلب للإيمان بالحقائق والبر والعملِ بها، ومنحه اليقين القوي بالأمور السماوية المشتملة على الغيب، وقد توالى ظهور هذين الأمرين بحيث ليس بوسع معارضيه ﷺ إنكارهما. وإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة في شخص كانت دليلا على صدقه كما كانت علامةً على أنه سيحدث ثورة طيبة في العالم حتما.

إن معظم الناس يشيدون بالأعمال الحسنة، ولكن كم منهم يتمسكون بالبر والخير في العسر واليسر؟ قلّما تجد من يقول إن صدق القول ليس ضروريًّا، ولكن قليل هم الذين يصدُقون القول دائمًا. ومعظم الناس يشيدون بالأمانة، ولكن كم منهم يعتبره قومُه كلُّهم أمينا حقًا؟ لماذا يعتبر الناس بعض الأمور حسنة ثم يقصِّرون في العمل بها؟ إنما سببه افتقارهم إلى اليقين الكامل بتلك الحقائق. أما محمد رسول الله ﷺ فكان أول من آمن بالحقائق الثابتة في عصره وعمل بها حقًا؛ حيث لم

يكتف ﷺ بقوله للناس إن الصدق حسن، بل كان صادق القول دائما. وإنه ﷺ لم يكتفِ بقوله للناس إن الأمانة أمر حسن، بل أثبت لهم بفعله أنه أمين فعلاً، حتى إن أهل مكة الذين كان اهتمامهم منصبًا على الأمور المادية بدلاً من الأخلاق صاحوا وقالوا إنه صدوق أمين حقًا (السيرة النبوية لابن هشام: حديث بنيان الكعبة وحكم رسول الله، والبخاري: كتاب التفسير، قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾). هذه الشهادة ليست شهادة عادية؛ ذلك أن قول الحقّ شيء، أمّا أن يسمّيك القوم كلُّهم صادقا فشيء آخر تماما. وإن التمسك بالأمانة أمر، أمّا أن تنال لقب الأمين من القوم كلهم فهذا أمر آخر تماما. إذ يكون هناك أعداء لك وأصدقاء، ولا يمكن أن تنال هذه الألقاب الطيبة من القوم كلهم إلا إذا بلغت في تلك الأخلاق حد الكمال بحيث لا يسع العدو إنكار ذلك. وإنّ بلوغ النبي هذه المكانة لدليل على انشراح صدره للبر فعلاً. ومَن انشرح صدره للبر فاقهامه بالكذب والخداع ظلم عظيم، ومِن الصعب أن يفلح أعداؤه في فصل الناس عنه فترة طويلة.

والمعنى الثاني لانشراح الصدر هو تيسُّر اليقين الكامل. واليقين الذي كان عند النبي ﷺ بصدقه ليس بأمر خفي. فعندما قال رؤساء مكة لعمّه أبي طالب أنه إذا كفّ محمد عن عيب آلهتهم فإنهم مستعدّون أن يعطوه ما شاء من سيادة أو مال أو أجمل فتاة عندهم، أما إذا لم يكفّ عن عيب آلهتهم فسوف يقضون عليه وعلى أتباعه. فردّ الرسول ﷺ على عمّه بكل جلال: يا عم يمكنك أن تتركني وتنضم إلى قومك، فوالله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري فلن أتوقف عن الإقرار بوحدانية الله ولن أتوقف عن الإعلان عن هذا الحق. (السيرة النبوية لابن هشام: مبادرة رسول الله ﷺ قومَه)

هل يجرؤ المرء على هذا الموقف بدون أن يكون عنده يقين أرسخ من الجبال الراسيات؟

وكذلك عندما اختفى الرسول ﷺ في غار ثور وحاصره العدو وأراد بعضهم أن يدخل الغار وأبدى أبو بكر خوفه على النبي ﷺ قال له: "لا تحزن إن الله معنا،

وكيف يمكن أن يضرونا بسوء والله معنا؟" (مجمع الزوائد، المجلد السادس: باب الهجرة إلى المدينة)

عندما يكون الإنسان الأعزل مع صديقه الأعزل محاصرًا من قبل أعداء متسلحين فلا يمكنه أن يعلن عن نجاته بسلام –فضلاً عن أن يعلن انتصاره على العدو– إلا إذا كان قد شاهد تأييدات الله بأم عينه. وهي أمور لا يذكرها المسلمون فقط، بل قد اعترف بها كفار مكة أيضا، فهم الذين لقّبوه بالصدوق الأمين، وهم الذين شهدوا ما وقع في غار ثور بأم أعينهم، وهم الذين شهدوا الحوار الذي جرى بينه ﷺ وبين أبي طالب. وهناك أحداث أخرى كثيرة دالة على صلاح النبي ﷺ ويقينه وإيمانه، وشهدها هؤلاء الكفار منذ أول أمره. فإن القرآن الكريم لم يجانب الصواب إذ أقام الحجة على أهل مكة بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، بل هذا هو الحق والحقيقة. إن المكانة التي تَبوَّأها النبي ﷺ في البر والصلاح والتقوى واليقين بالله تعالى والإيمان بآياته تؤكد حتمًا أنه لم يكن مجنونا ولا شخصًا غير مسؤول ولا ضعيف العزيمة ولا تابعا للأفكار العابرة، بل لقد رأى آيةً ربانية عظيمة جعلتْ إيمانه أرسخ من الجبال. هل هناك شبهة في انتصار مثل هذا الإنسان؟ هذا هو السؤال الذي كان على معارضيه أن يجيبوا عليه، ولا شك أنهم كانوا يتهربون من الإجابة عليه خائفين.

اعلمْ أن نجاح المرء يتوقف على ثقته بنفسه. من المحال أن ينجح أحد من دون أن يكون موقنًا بما يدّعيه. دَع الأمور الروحانية جانبًا، فإن المرء لا يجتهد في الأمور المادية بجدية ما لم يكن واثقًا بنفسه. أما إذا كان واثقا بنفسه بذل أقصى جهده فيما ينويه وإنْ كان كاذبا. بل الحق أن الإنسان إذا أيقن بشيء ولو يقينا عابرا سعى جاهدا لتحقيقه، بل الواقع أنه لو انتاب المرء شكٌّ عابر فأيضا لا يبرح يجتهد لتحقيق مرامه. يقال أنه كان هناك ولدٌ بليدٌ أبلَهُ وكان الأولاد الآخرون يضايقونه، فإذا تضايق من مطاردتهم له قال على سبيل الكذب –وكان يعرف فطرتهم جيدا– لقد أعَدّ فلان من الأغنياء وليمة اليوم، فلمَ لا تحضرونها بدلاً من مضايقتي؟ وكان من عادة العرب كرم الضيافة الزائدة إذ كان كبارهم ينحرون الإبل ويدعون الناس

ليأكلوا ويتمتعوا، و لم تكن مآدبهم كمآدبنا حيث يدعى إليها أناس بعدد محدود؛ بل كان يحضر مآدبهم أي إنسان. فعندما كان هؤلاء الأولاد يسمعون قول الولد الأبله يتركونه ويركضون إلى بيت الزعيم المذكور. فإذا بقي الولد الأبله بعد ذهابهم وحده انتابته الشكوك وقال في نفسه لعل الزعيم قد أقام المأدبة فعلاً، فليس حسنًا أن أتعرض للضرب على أيدي هؤلاء الأولاد ثم أظل محرومًا من الطعام أيضا. فكان يجري إلى بيت الزعيم، فيجد الأولاد راجعين من هنالك، فكانوا يوسعونه ضربًا ولكمًا إذ خدعهم. وكان الولد يحتال عليهم مرة أخرى ويقول لهم لقد أخطأت في ذكر اسم الزعيم، إذ الواقع أن المأدبة في بيت فلان. فكان الأولاد يتركونه واثقين من حديثه ويجرون إلى البيت الآخر، وبعد ذهابهم كان الولد يفكّر لعل هناك مأدبة بالفعل، فكان يجري وراءهم إلى ذلك البيت، وفي الطريق كان يجد الأولاد راجعين وهم في غيظ شديد، فيأخذون بضربه.

هذه الحكاية يضربها العرب مثلاً على شدة الجشع والشَرَه. فترى أن الولد كان كذابا، ومع ذلك كان يفكر لعل ما يقوله صحيح، فكان يجري وراء الأولاد لكي لا يُحرَم من الطعام. فثبت من ذلك أن اليقين هو الحافز وراء كل جهد، وكلما كان اليقين قويا كان الجهد كبيرا، وكلما كان اليقين ضعيفا كان الجهد ضعيفا.

اليقين درجات عديدة في القرآن الكريم أبرزها ثلاث: عِلمُ اليقين، وعينُ اليقين، وحقُّ اليقين. وموضوع مراتب اليقين هذا، هو من المواضيع الأساسية الهامة التي بيّنها المسيح الموعود عليه السلام على وجه الخصوص (إسلامي أصول كي فلاسفي، الخزائن الروحانية المجلد ١٠ ص ٤٠٢). أنا لا أقول أن الصوفية الأوائل لم يذكروا هذا الموضوع في كتبهم. كلا، لقد ذكروه في كتبهم، ولكن المسيح الموعود عليه السلام قد بيّن جوانب دقيقة عميقة جديدة لهذا الموضوع، وهذا ما لا يوجد في كتب السابقين. لقد اعترض البعض لعدم فهم هذه الحقيقة وقالوا: إن هذه الأمور مذكورة في كتب الإمام الغزالي، حيث اتهم الدكتور الشاعر إقبال أن مؤسس الأحمدية قد سرق هذه المواضيع من كتب الصوفية الأوائل، ولكن التدبر والمقارنة ستكشف للمرء أن هؤلاء لم يذكروا هذا الموضوع بالدقة والروعة التي هي

من نصيب المهرة في فن ما، أما المسيح الموعود عليه السلام فإنه لم يتناول أي موضوع من هذه المواضيع إلا وذكره بأدق تفاصيله الرائعة بحيث لم يعد هناك حاجة إلى مزيد من التفصيل، وهذا ما يفعله الماهر في أي فن، مما يميزه عن الآخرين. خذوا مثلاً الرسم، فكل إنسان يمكن أن يرسم رسما، وأنا أيضا أستطيع أن أرسم صورة جيدة أو سيئة، ولكن ما هو الفرق بين ما أرسمه وبين ما يرسمه رسّام فنّان؟ الفارق أنه سيرسمه بأدقّ تفاصيله الرائعة، أما أنا فلن يكون رسمي إلا خطوطا بسيطة. فتناوُل موضوعٍ ما شيءٌ، أما بيانه بأدق تفاصيله الرائعة فشيء آخر تماما. لا شك أن المسيح الموعود عليه السلام قد ذكر بعض المواضيع التي قد تناولها بعض الصوفية من قبل، ولكن الفرق هو كالفرق بين ما يرسمه شخص عادي وما يرسمه فنان ماهر. إن هؤلاء الأسلاف قد رسموا هذا الموضوع كما يرسم طالبٌ صورة، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد رسمه كرسّام ماهر بكل روعته، مما يؤكد تميّزه ونبوغه. كما أنه عليه السلام قد ساق الأدلة القرآنية على كل موضوع تنبيهًا إلى أن القرآن الكريم هو الذي قد أعلَمَنا بهذا الموضوع.

وكما قلت فإن أول مراتب اليقين هو علم اليقين، ويليها عينُ اليقين.. أي أن يرى المرءُ الشيءَ بعينه بحيث لا تبقى بعده شبهة، ومثاله أن يرى مِن بعيد دخانًا فيدرك أن هناك نارًا. والمرتبة الثالثة هي حق اليقين، ومثاله أن يضع المرء إصبعه في النار ويتأكد أنها تُحرق، وبعد مرتبة حقّ اليقين لا تبقى أدنى شائبة من الشك والشبهة. والرسل يتبوأون هذا الدرجة من اليقين، وقد بلغ النبي ﷺ منهم قمة حق اليقين لكونه سيد الأنبياء. ومن أجل ذلك كلما بعث الله تعالى رسولاً أمره أن يكون أول المؤمنين بدعواه هو أولاً، ثم يعرضها على الناس، مما يعني أن السنة الإلهية بصدد الأنبياء هي أنه تعالى ينشئ اليقين في قلب النبي أولاً ثم يبعثه لهداية الناس. وأما قول الله لرسوله ﷺ بأن يعلن للناس ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٤) فإنما معناه أن علينا أن نولّد اليقين في قلبك أولا، إذ لو كنت أنت عرضةً للشك والتردد فكيف ستبذل جهودا تقتضيها هذه المهمة. لقد رأيت أن بعض الناس لا يفهمون أمْرَ الله تعالى لرسله بأن يقولوا ﴿أَنَا أَوَّلُ

الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:١٤٤) أو ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، فيقولون معترضين: ما معنى أن يؤمن النبي بدعواه؟ إن هؤلاء المعترضين لا يدرون أن الإنسان لا يمكن أن يرفع شكوك الآخرين وشبهاتهم إلا إذا كان هو يتمتع باليقين. إنما يولِّد اليقينَ في الآخرين مَن كان قلبه عامرًا باليقين أولاً، ولا ينوِّر الآخرين إلا مَن كان قلبه منوَّرا بالنور الإلهي أولاً. وليس انشراح الصدر إلا هذه المرتبة الأخيرة من اليقين التي تسمى حق اليقين، ومن أجل إنشاء هذا اليقين في قلوب الأنبياء يأمرهم الله تعالى أن يقولوا: أنا أول المؤمنين. الواقع أن الأعمال العظيمة لا يمكن أن ينجزها الإنسان إلا إذا كان أول المؤمنين، إذ كيف يمكن أن يهدي الآخرين مَن لا يوقن بنجاحه في مهمته يقينًا يسمو على أي شك أو شبهة؟ فالحق أن قوله تعالى ﴿أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس إعلانًا عاديًّا، بل هو دليل عظيم يقدّمه أنبياء الله والمقربون، وهذا هو الإيمان الذي يقضي على شكوك الآخرين ويرفعهم إلى قمة اليقين.

وجدير بالذكر هنا أن موسى عليه السلام دعا ربه وقال ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه:٢٦)، مما يعني أنه كان يسأل الله تعالى أن يهبه من اليقين ما يدرك به أنه إذا لم يُتِمّ مهمته فهو المقصر، أما نبينا ﷺ فيقول الله تعالى له ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي لم نمنحك هذا اليقين فحسب، بل تدرك أنت أيضًا بأنك قد أُوتيتَه، بمعنى أننا قد منحناك اليقين بحيث انكشفت عليك الحقيقة تماما؛ ذلك أن الاستفهام التقريري إنما يستعمل حين يكون المخاطَب على معرفة تامة بالأمر، إذ قد يكون المرء مزودا بكفاءات معينة ولكنه لا يعلم ذلك. ومعروف أنه لا يتيسر اليقين الكامل بالأمور التي تفوقُ الإدراكَ الإنساني إلا بالتجلّي الإلهي. ليس الإنسان بحاجة إلى التجلي الرباني ليوقن بالأشياء المادية التي يملكها مثل الخبز والمال وغير ذلك، لأنه موجود عنده، لكن الشيء الذي وهبه الله لرسوله روحاني لا مادي، ولا يوقن الإنسان بالشيء الروحاني ما لم يتجلَّ الله عليه بتجلياته المتتالية التي تثبِّته على مرتبة حق اليقين. والواقع أن اليقين مدارج مختلفة، فأحيانا يوقن الإنسان بالشيء المادي وأحيانا بالشيء الروحاني، وأحيانا يوقن بالشيء ومع ذلك يقع في الشكوك

والشبهات عند أدنى ابتلاء، وأحيانا يظن أن عنده اليقين، ولكنه لا يدرك أن يقينه ليس قويًا غيرَ متزعزع. فهناك قصة شهيرة عن فتاة اسمها ميستي: مرضت الفتاة ذات مرة مرضا شديدا، وتدهورت صحتها جدا، فأخذتْ أُمُّها تدعو الله تعالى قائلة: رب إذا كان مَلَكُ الموت سيقبض روحًا لا محالة، فليقبضْ روحي عوضًا عن روح بنتي. وتصادف أن انفلتتْ بقرتُها من رباطها وذهبت تشمّ الأواني الموجودة في فناء البيت، فوجدت في جرّةٍ طحينًا فأدخلت فمها فيها وبدأت تأكل الدقيق، ثم لما حاولت أن تخرج فمها من الجرة علقتْ برأسها، فأخذت تجري في الفناء فزعًا، فاستيقظتْ والدة الفتاة، فلم تدرك أنها البقرة، بل ظنّتها مَلَكَ الموت الذي جاء لقبض الروح، إذ كانت تدعو الله تعالى أن يقبض ملك الموت روحها بدل روح ابنتها. فلما رأت الموتَ محدقًا بها قالت بصورة عفوية: أنا لستُ ميستي يا مَلَك الموت، إنما أنا عجوز فقيرة مسكينة، أما ميستي فإنها مستلقية بالداخل، فاذهبْ واقبضْ روحها هي.

فترى أن هذه المرأة كانت موقنة في زعمها أنها مستعدّة للتضحية بنفسها من أجل ابنتها، ولكن يقينها هذا لم يثبت حين رأت الموتَ ماثلاً أمامها، بل نسيتْ دعوى مَحَبّتها لابنتها فورًا. كذلك يظنّ الإنسان أحيانًا أن عنده اليقين، ولكن يقينه لا يكون مما يثبت أمام الاختبار، بل إن ما يعُدّه يقينا إنما هو خداع نفسه. لا شك أن النبي ﷺ قد تيسر له اليقين الكامل، ولكن كيف علم أن عنده اليقين الكامل الذي لن يتزعزع أمام أي اختبار مهما عَظُم. ما كان النبي ﷺ ليدرك ذلك إلا إذا تحوّلَ هذا الأمر الغيبي إلى أمرٍ واضح بيّن، وثبّتَه الله تعالى بتجلّياته المتتالية على مقام لا يمكن أن تتزعزع منه قدمُه. وحيث إن اليقين الكامل بالأمور التي تفوقُ الإدراك الإنساني لا يتيسر إلا بالتجلي الرباني فثبت من هذه الآية قطعًا أن الله تعالى كان قد تجلّى على النبي ﷺ حتى ذلك الوقت بتجلّياته المتواترة، وقد رأى ﷺ من الشواهد اليقينية التي أيقن بها أنه قد شاهدَ التجلّياتِ الإلهية المتواترة كما شاهدَ الأرض والشمس والسماء، مما لا يمكن بعده أن يُنزَع هذا اليقين من قلبه. وما دام الأمر هكذا فكيف يمكن أن لا يقول الله له ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟ أي

يا محمد تعلم جيدًا أننا قد شرحنا لك صدرك. إذن، فهذه الآية لا تخبر عن انشراح صدر الرسول ﷺ فحسب، بل تبيّن أمرًا إضافيا بأن أمر النبوة كان قد اتضح له ﷺ نتيجة التجليات الإلهية بحيث كان مستعدًّا لأن يعلن للناس: لا شك أنني سأواجه المحن والصعاب، ولكن مِن المحال أن يقضي عليَّ أحد أو أن تزعزع النوائب قدمي. وقد أكّدت الأحداث الآتية أيضًا أنه كان متحليًا بهذا النوع من اليقين، وأن التجلّيات الإلهية قد ثبّتْه على مقام لا يمكن زعزعته عنه بحال من الأحوال. وأقدِّم على ذلك سبعة أمثلة:

أولاً: حواره مع أبي طالب: لقد أتاه كبار مكة وقالوا له جئناك لتبلّغ ابن أخيك أنه إذا كان يرغب في المال جمعنا له المال ليصبح أغنى العرب، وإذا كان يريد زوجة جميلة زوّجْناه بأجمل فتاة بين العرب، وإذا كان يريد حكمًا ورئاسة رضينا به ملِكًا علينا. نحن مستعدّون لتلبية كل رغبة له شريطة ألا يذكر آلهتَنا بسوء. فلو كان عند النبي ﷺ ذرة من التذبذب في دعواه أو لو كان عنده شيء من الطمع لفرح بعرضهم وقال: ها قد تحقَّقَ مطلبي؛ لقد كنت أريد الثروة فوجدتها، وكنت أريد زوجة فقد عرضوا عليّ أجمل فتاة، وكنت أرغب بالسيادة فسوف أنالها الآن، فما الحرج لو امتنعتُ عن ذكر آلهتهم بسوء؟ ولكنه ﷺ لم يرُدّ عليهم بهذا، ولم يقل لهم حسنًا، إني أقبل عرضكم، فأعطوني المال والرئاسة والفتاة الجميلة أمتنعْ عن ذكر آلهتكم بسوء. كلا، بل قال لعمّه: واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركتُه. (السيرة النبوية لابن هشام: مبادرة رسول الله ﷺ قومه)

ما أدلَّ هذا الحادثَ على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾! فقد حاولوا إغراءه بأكبر المغريات، ولكنه ﷺ لم يبالِ بها مطلقًا، بل قال لا أبرح المهمة التي بعثني الله بها إلى آخر نَفَسٍ فيَّ، ولن أحيد عنها وإنْ وضع أهل مكة الشمس في يميني والقمر في يساري.

ثانيا: حادث الهجرة: إن خروج النبي ﷺ من بيته عند الهجرة يشكّل دليلاً قويا آخر على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. لقد علم النبي ﷺ أن الكافرين يحاصِرون بيتَه لقتله، ولكن الله تعالى كان أخبره بأن هؤلاء لن يتمكنوا من قتله مهما دبروا من مكائد، لذا خرج ﷺ من بيته مطمئنًا دونما خوف ومرَّ بكل شجاعة من أمام صفوف المحاصرين. فلو كان مكانه شخص آخر لأُصيب بالهلع وخذلتْه رجلاه و لم يدرِ ما يفعل؟ (السيرة النبوية لابن هشام: خروج النبي ﷺ واستخلافه عليًا على فراشه ص ٤٨٢-٤٨٣)

لقد سمعتُ الخليفةَ الأول ﷺ يقول إنه قرأ في رواية -ولكني لم أعثر على هذه الرواية في أي مرجع حتى الآن- أن أحد هؤلاء المحاصرين اعترف فيما بعد قائلاً: لقد رأيتُ شخصا يخرج من بيت النبي ﷺ، ولكني ظننت أنه شخص آخر، فاختفيت حتى لا يراني ويخبر محمدًا أن هناك قومًا خارج بيته يريدون اغتياله. والحق أن الكفار لم ينتبهوا إلى النبي ﷺ وهو يمرّ من أمامهم إلا لأنه خرج من بينهم بكل شجاعة واطمئنان وبخطوات ثابتة دونما فزع، فلم يخطر ببال العدو أن الذي خرج من بيته هو محمد ﷺ نفسه. لو كان غير النبي ﷺ لسقط مغشيا عليه برؤية الأعداء المحاصرين، ولكنه لم يكترث لهم مطلقًا. لقد كان على يقين كامل أن الكفار لن يستطيعوا قتله، لأن الله تعالى سيحميه ويفي بوعد العصمة له. إذن، فحادث خروج النبي ﷺ من بيته عند الهجرة دليل هام على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

ثالثا: حادث غار ثور: كان العدو قد وصل فتحة المغارة، فقلق أبو بكر، فقال له النبي ﷺ ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).. أي لا داعي للقلق ما دام الله معنا. إذ كيف يمكن أن يضرّونا ونحن في معيته تعالى؟ وبالفعل رجعوا خائبين. لا شك أن اليقين الكامل هو الذي جعله ﷺ يقول لصاحبه ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ وذلك في وقت كان العدو قد وصل إلى فتحة المغارة، وكان النبي ﷺ يسمع أصواتهم.

رابعا: حادث غزوة أُحد إذ فرَّ أكثر الصحابة من ساحة القتال نتيجة خطأ بعض منهم. كان العدو البالغ عدده ثلاثة آلاف يتقدم مهاجمًا النبي ﷺ هجومًا شرسًا في وقت لم يبق معه إلا بضعة من أصحابه، ومع ذلك لم يتزحزح النبي ﷺ حتى انفرد ولم يبقَ معه أَحَد. فأصيبت أسنانه المباركة وسقط في حفرة جريحًا. الواقع أن الإنسان يفكر في مثل هذا الموقف في الاختفاء وراء صخرة اتقاءً من صولة العدو الشديدة، ولكنه ﷺ ظل ثابتًا في مكانه ولم يتزحزح عنه، ليقينه أن الكافرين لن يقدروا على قتله أبدًا؛ لأن الله قد وعده بالعصمة من القتل بيدهم قائلا: ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس﴾(المائدة:٦٨)، ولا بد أن يتحقق هذا الوعد، ولا بدّ أن يخيَّب العدو في أهدافه. (البداية والنهاية: غزوة أحد)

إذن، فحادث غزوة أُحُد لبرهانٌ ساطع على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

خامسا: حادث وقع في غزوة غطفان: بينما كان النبي ﷺ عائدًا من هذه الغزوة، قرّر أحد الأعداء أن لا يعود إلى بيته إلا بعد اغتياله ﷺ، فبدأ يتتبع جيش المسلمين ويتربص به متحينًا فرصة قتل النبي ﷺ، لكنه لم يجدها إلى أن وصل الجيش قريبًا من المدينة. وحيث إنها كانت منطقة إسلامية فلم يأخذ الصحابة الحذر الكافي وانتشروا وقت الظهر يستريحون تحت الأشجار. فانتهز العدو الفرصة وتسلّلَ إلى الشجرة التي كان النبي ﷺ يستريح تحت ظلها، فأخذ سيفه المعلّق بالشجرة، وأيقظه قائلا: مَن يمنعك مني؟ فقال ﷺ وهو مستلقٍ بكل اطمئنان ويقين دونما تردُّدٍ: الله. لو قلتَ هذه الكلمة البسيطة في الظاهر أمام عدوك فلن يتأثر بها كثيرًا، ولكن النبي ﷺ قد قالها بإيمان كامل ويقين قوي، فلم يسمع العدو من النبي ﷺ اسم الجلالة فحسب، بل كأنه وجد الله واقفًا بجنبه ﷺ، فارتجفت يده وسقط السيف فحمله النبي ﷺ فورًا وقال له: أخبرْني الآن من يمنعك مني؟ فقال ارحمني أنت. فقال ﷺ من المؤسف أنك لم تتعلم مما سمعتَ مني، إذ كان بوسعك أن تقول كما قلت: الله يمنعني، ومع ذلك لم تفعل. (البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع). وهكذا قد أقام النبي ﷺ الحجة على العدو، وأخبره بعَمله أنه لم يقل الله تعالى

تكلّفًا، إذ لو قاله تكلّفًا لكان بإمكان العدو أيضا أن يقولها تكلّفًا، ولا سيما أنه قد رأى النبيَّ ﷺ قد أعربَ عن ثقته بالله تعالى فحماه الله ونجّاه، ومع ذلك لم يستطع هذا العدو أن ينطق بلفظ الجلالة بلسانه كما فعل النبي ﷺ، مما يشكل دليلا على أن الإنسان لا يستطيع عند الفزع أن ينطق باسم الله ولو تكلّفًا، وإنما ينطق بها في مثل هذا الموقف إذا كان الله تعالى قد سرى في كل ذرة من كيانه، وأيقن الإنسان أن ربه لن يخذله أبدًا، وذلك بناءً على أدلة يقينية هي أقوى من وجود الشمس. إذن، فهذا الحادث لدليل ساطع آخر على انشراح صدر النبي ﷺ.

المثال السادس: حادث غزوة الخندق: لقد جاء العدو وحاصر المدينة وقد رسمتْ سورةُ الأحزاب هذا الموقف أروعَ رسم، حيث كان العدو يرى أنه قد قضى على المسلمين بينما كان المؤمنون يقولون لقد تحققَ ما نبّأنا الله به ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٣). فما خاف المسلمون وما فزعوا، بل قالوا فرحين بأن وعد الله قد تحقق. هذا دليلٌ ساطع على انشراح صدر رسول الله ﷺ، إذ لولا هذا الانشراح عنده ﷺ لما كان عند أتباعه هذا اليقين غير العادي بتحقق وعود الله تعالى. كان العدو يحاصرهم من كل طرف ولكنهم كانوا يستبشرون بأن أنباء الله قد تحققت.

المثال السابع: قبل وفاة النبي ﷺ بفترة جاءه مسيلمة الكذّاب مع قبيلته التي كانت أكثر قبائل العرب عددًا وقوة. وقال كبار قومه للنبي ﷺ لقد آمنّا بك وبايعناك، ولكن شخصا من قومنا يقول إنه يتلقى الوحي، وأن علينا أن نؤمن به أيضا، وقد جئناك به لتتم بيننا اتفاقية كي لا تتفاقم هذه الفتنة. وكان الله تعالى قد أخبر النبي ﷺ أن أجله قريب، فدعا مسيلمة وقال له ماذا تريد؟ قال مسيلمة أَخْبِرْني أنت أولاً ماذا تريد؟ قال ﷺ إنما أريد أن تؤمنوا أني رسول الله وتطيعوني. قال نحن نؤمن أنك رسول الله ولكننا نريد أن تجعلني خليفة بعد وفاتك أو حين لا تكون عندك رغبة في هذا الأمر، وقد قال ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن له أولاد ذكور يرثونه. ومع أن مسيلمة اشترط على النبي ﷺ شرطًا ليِّنًا جدًا في زعمه من أجل الاتفاقية، وكان برفقته مائة ألف جندي، إلا أن النبي ﷺ أخذ قشة وقال له: لن

أعطيك هذه ناهيك عن خلافتي، وسوف يفعل الله في أمري ما يشاء.. أي أنه تعالى سوف يقيم مَن يشاء خليفةً مِن بعدي، ومَن أنت حتى تتدخل في هذه الأمور؟ فرجع مسيلمة غاضبًا، وارتد عن الإسلام مع قبيلته. وعندما توفي النبي ﷺ خرج مع مائة ألف جندي من قبيلته وشنَّ على المسلمين هجوما شرسًا لم يسبق له نظير. لقد استُشهد الصحابة في هذه المعركة بأعداد كبيرة جدا ورجعوا منهزمين. فأمر أبو بكر ﷺ قادة الجيش المنهزم ألا يقابلوه. هذه العقوبة التي فرضها عليهم أبو بكر تكشف مدى صدمته بهذه الهزيمة. (السيرة لابن هشام: قدوم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب، والبخاري: كتاب المغازي)

فلِمَ لَمْ يبال النبي ﷺ بهذا الخطر الحقيقي الذي كان يتهدّده من قِبل مسيلمة وقومه في حالة ارتدادهم، وإنما أخذ قشة وقال له أنت تريد الخلافة بعدي، وأنا لن أعطيك هذه القشة أيضًا. إنها أمانة ربانية وسوف تصل إلى من هو أهلها؟

باختصار، إن حياة النبي ﷺ من بدايتها إلى نهايتها كلها برهان ساطع على صدق قول الله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. لقد تحلى في كل موقف بيقين راسخ بذات البارئ تعالى، كما رأيناه متجليًا في حادثة مسيلمة الكذاب. لقد فكّر النبي ﷺ أن الله تعالى ما دام قد أخبر أن أبا بكر سيكون خليفة بعدي فما قيمة مسيلمة إزاءه؟ فرفض مطلبه بشدة غيرَ مكترث بالصعاب والمحن المترتبة على هذا الرفض.

لا جرم أن الأمثلة التي ضربتها تتعلق بعضُها بفترة ما قبل نزول هذه الآية، ولكن قصدي مِن سردها أن حياة النبي ﷺ كلها كانت برهانا ساطعا على أن الله تعالى كان قد شرح صدره للإسلام ولأحكامه منذ البداية إلى النهاية.

والمعنى الثاني للشرح هو الحفظ، وعليه فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني ألم نجعل صدرك محفوظا؟ الصدر – أي الدماغ- مخزن تجارب الإنسان حيث يحفظ فيه كل عمل يعمله. يقول النبي ﷺ إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يُغلَف قَلْبُهُ (الطبري، سورة البقرة: القول في تأويل قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم...)

أي أن الإنسان إذا عمل عملا حسنا كان في قلبه نكتة بيضاء، أي يترتب على عمله النتيجة الطبيعية علاوةً على النتيجة الشرعية، حيث توضع على قلبه علامة نورانية فيصبح قادرا على فعل المزيد من الخيرات، ومَن عمِل سيئةً ترتبت عليه النتيجة الطبيعية علاوةً على النتيجة الشرعية، حيث توضع على قلبه علامة سوداء فيسهل عليه فعل السيئات، وتستمر هذه الحالة إلى أن يصبح قلبه كله أسود أو كله أبيض. وهذا ما يشير الله إليه في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، واللام في قوله ﴿لك﴾ للفائدة، والمراد أننا قد جعلنا صدرك محفوظا لتلقّي الأمور الروحانية النافعة لك، بمعنى أنه لا يمكن أن يؤثر في قلبك أي حافز من حوافز السيئات؛ لأن الله تعالى أراد أن يصبح صدرك محفوظا للحسنات. وقد فسّر النبي ﷺ هذه الآية بنفسه إذ قال عن الشيطان: "إن الله أعانني عليه فأسلمَ، فلا يأمُرني إلا بخير" (مسلم، كتاب صفة المنافقين، باب تحريش الشيطان). بمعنى أن الله تعالى قد حفظ صدر الرسول ﷺ من أجل الأمور النافعة له، فمن المحال أن يدخل في صدره ما يضره، ولو دخل فيه صار خيرا، كما يقال عندنا: كل شيء يذهب في منجم الملح يصبح ملحًا. فما أعظمَ المقامَ الذي تبوّأه الرسول ﷺ! فكانت كل فكرة تخطر بباله حسنةً، ولو واجهته السيئة انقلبت حسنةً. فعندما رماه أهل الطائف بالحجارة وسلطوا عليه السفهاء لم تتولد في قلبه مشاعر الحزن والغضب، بل أخذ يدعو الله تعالى "رَبِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".. أي ربّ لا تغضبْ على شرّهم فأنهم لا يعلمون أنني مرسل إليهم. (مسلم، كتاب الجهاد والسير)

ما أروعَه من نموذج للخير! إن الحديث عن العفو باللسان سهل، ولكن أن يعفو الإنسان عمن يرمونه بالحجارة ويحرّضون عليه الغوغاء وأن يدعو لهم، فهذا لا يفعله إلا المقربون عند الله تعالى. وكان محمد رسول الله ﷺ أفضل المقربين، وإلى هذا الأمر أشار الله بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي أليس صحيحا أننا قد جعلنا صدرك محفوظا لك مِن كل شر، فلا يدخل فيه إلا ما هو خير؟ أوَليس هذا دليلا على أن إصلاح الدنيا لن يتم إلا بواسطتك؟ وكما أن الشيطان قد مُنع مِن أن يدخل في صدرك كذلك ستتسبب في صدّه عن الدخول في صدور الآخرين. ما

أروعَه وأوضحَه من دليل! فالبصير هو الذي يهدي العميان، وأنّى للأعمى أن يهديهم؟ والحق أنه لا يمكن أن يهدي العالَمَ هدايةً كاملة إلا مَن جعل الله صدره محفوظا من تأثير الشيطان، إذ من الصعب أن يرفض قوله مَن يميل إلى الخير؛ لأن قطعة الحديد لا يمكن أن تظل بعيدة عن المغناطيس، ولأن الطيور على أشكالها تقع.

والمعنى الثالث للشرح هو التفهيم، وعليه فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. يعني أننا ألقينا في قلبك حقائق الأشياء وفهّمناك إياها كالمعلّم. بمعنى أن الله نفسه قد علّم النبي ﷺ وفهّمه حقائق الدين. وهذا الموضوع واضحٌ بيّن، فمَن كان الله معلِّمَه فهو الذي يكون معلِّمَ العالم الروحاني. لقد ظهر النبي ﷺ حين كانت الدنيا تجهل الحقيقة الروحانية، وكانت بحاجة إلى أن يُعلِّم الله بنفسه أحدًا كالأستاذ، ليكون هذا أستاذا للعالم، وهذا ما تشير إليه هذه الآية. يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ألم نعلّمك بنفسنا الحقائق الروحانية؟ وما دام الله تعالى قد أنزل على قلبك حقائق الأشياء فمن ذا الذي يهدي الضالّين سواك؟ أو كيف يمكن أن تفشل في مهمتك؟ لأنّ فشل التلميذ فشلٌ لأستاذه. إذا فشلتَ فهذا يعني أن الله الذي علّمك وبعَثك لإصلاح الدنيا هو الذي قد فشل! وهذا محال؛ فلا بد أن يكون النجاح حليفك.

ولقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ مفهوم آخر، وهو دليل ساطع على عظمة النبي ﷺ وسموّ درجته، وبيانُه أن العلوم في الدنيا نوعان؛ علم خارجي وعلم داخلي، ولا يكتمل العلم إلا بهما. وهذا أمر هام في علم النفس يجهله كثير من الناس. يظن الناس أن العلم الخارجي هو الأصل، مع أن العلم الخارجي محدود جدا ولا يكتمل بدون العلم الداخلي. ومثاله أنني ألقي الآن درس القرآن، ويوجد بين الحضور مَن آتاه الله الفهم والإدراك، وفجَّر في صدره نَبْعَ علم القرآن، فعندما يستمع إلى درسي فلا ينقل للآخرين ما أقوله فحسب، بل يستطيع أن يبين كثيرا من المعارف الإضافية التي لم أستطع بيانها لضيق الوقت. كما يوجد بين المستمعين مَن يستطيع أن ينقل للآخرين ما سمعه مني، ولكن ليس عنده من الكفاءة الفكرية ما يستنتج به نقاطًا جديدة. ثم يوجد بين الحضور مَن لا يستطيع نقل كل ما سمعه

في الدرس، بل ينقل ثلثيه أو ثلاثة أرباعه، ومنهم من ينقل نصفه، ومنهم إذا سألتَه ماذا سمعتَ في الدرس قال سمعتُ تفسيرا رائعًا للقرآن غير أني لا أحفظ منه شيئا.

كان المسيح الموعود عليه السلام قد بدأ ذات مرة سلسلةً من الخُطب بين النساء، وبعد فترة فكَّر أن يمتحنهن ليعرف إذا كن يفهمن ما يسمعنه أم لا. وكانت بينهن سيدة مخلصة من منطقة اسمها "نابه"، فقال عليه السلام أتحضرين خُطبي التي ألقيها بين النساء؟ قالت نعم أنا كل يوم أستمع لخطابك، ولم أحضر هنا إلا لهذا الغرض. قال حسنًا أَخْبِريني ماذا قلتُ فيها؟ فقالت: كنت تتحدث عن الله ورسوله. لقد أجابت بهذا الجواب إذ لم يكن عندها علمٌ داخلي، وإنما اعتمدتْ على ما عندها من علم خارجي، وظنتْ أنها تفهم كثيرا، مع أنها لم تكن تفهم شيئًا. فثبت أن من المستحيل بدون العلم الداخلي أن ينقل المرء الأمرَ للآخرين بشكل صحيح. فعندما يتناول المرء في درسه أو خطابه موضوعا يضطر لعدم ذكر بعض جوانبه دائمًا، إذ لو بيّن جوانبه كلها لانقضى عمره كله في بيان ذلك الموضوع بدون أن يكمله، ولأجل ذلك لم يكنْ بيان أي إنسان كاملا حتى اليوم. إذ كل ما يذكره يكون كبذرة ينتفع كل إنسان منه حسب استعداده وكفاءته. وبالمثل عندما ينزل كلام الله من السماء فلا يعني للبعض إلا بقدر كلماته أو نصفها، ولكنه يكون للبعض بمنزلة البذرة أو النواة التي تصبح فيما بعد دوحة كبيرة تتفرع منها فروع كثيرة من العلوم، فتنكشف عليهم معارف جديدة كثيرة. وهذا ما يشير إليه الله تعالى بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي أن صدرك بمنزلة الأرض الخصبة لهذا الكلام. إن القرآن بمثابة النواة، فإذا دخل صدرَك أصبح شجرة. لو كان صدرك بقدر النواة لم تفهم من القرآن إلا كلماتٍ، ولكن الله تعالى بعثك لإنجاز مهمة كبيرة جدًا وأرسلك لتقوم بتفسير القرآن وشرح أحكامه وتبيين معارفه وحقائقه للدنيا، وكان هذا يتطلب أن يكون صدرك واسعًا ليزداد فيه العلم الذي أنزلناه عليك باستمرار، وتنبع منه معارف جديدة وتنكشف منه حقائق متجددة. ألستَ شاهدا على أننا قد زودناك بهذه الكفاءة، فإذا نزلت عليك آية انكشف عليك كل ما يتعلق بها؟ وإذا نزل عليك حكم انكشفت عليك دقائقه وغوامضه وعرفتَ فورًا أين يمكن انطباقه

وأين لا يمكن. وهذا يعني أن الله تعالى قد زود النبي ﷺ بعلم داخلي علاوةً على العلم الخارجي، وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي: ألم نعطك علمًا داخليا علاوة على القرآن الكريم. لقد ذكرتُ آنفًا أن التلاميذ كلهم سواسية فيما يتعلق بالعلم الخارجي، ولكن كفاءاتهم متفاوتة فيما يتعلق بالعلم الداخلي، وكلٌّ منهم ينتفع من العلم الخارجي بحسب كفاءاته الداخلية. كانت أحكام الإسلام الواسعة بحاجة إلى صدر واسع يستوعب كل أنواع العلوم ويشرحها وينشرها في العالم، وحيث إن العلم الموهوب للنبي ﷺ كان واسعًا جدًا، فكان بحاجة إلى صدر يستوعب كل جزئية منه ويشرحه ويوسّعه إلى أبعد الحدود، ذلك أن البعض لا يكون علمهم إلا بقدر الكلمات، بينما يوجد هناك من ينالون علمًا واسعا بكلمات وجيزة ويوسّعونه أيّما توسيع. وهذا ما يُسمَّى التفقُّه، وهو شيء غالٍ جدا. إن بعض الناس يعترضون على الإسلام قائلين إن كذا وكذا من أحكامه ليس في القرآن الكريم، فمن أين أتى به رسول الله ﷺ؟ إن هؤلاء جهال لا يدرون أن النبي ﷺ كان متفقهًا، وأنهم ليس عندهم أي تفقه، فكيف يمكن أن يتيسر لهم من القرآن الكريم ما تيسر للرسول ﷺ من علوم ومعارف؟ إنني أتفق مع الجكرالويين✦ فيما يتعلق بالحقيقة الأساسية كل الاتفاق، ولكن أعتبرهم مجانين فيما يتعلق بالشرح. لا شك أن كل شيء في القرآن الكريم وليس خارجه شيء، ولكن من الهراء والسخف اعتبار عبد الله الجكرالوي ومحمد رسول الله ﷺ سيّينِ في فهم القرآن. ويمكن فهمُ هذا الأمر بالقياس على أنفسنا نحن، فهناك آلاف الآلاف من معارف القرآن ودقائقه التي لم تنكشف على الأولين، ولكن الله كشفها علينا نحن المسلمين الأحمديين. فإذا كانت هذه الأسرار والغوامض القرآنية يمكن أن تخفى على الملايين الذين خلوا من قبل، فكيف لا ينكشف على النبي ﷺ معارف القرآن الكريم أكثر منا بملايين الأضعاف. إذن، فكيف يمكن القول أن كذا وكذا من

✦ الجكراليون فرقة إسلامية في القارة الهندية لا تأخذ بالحديث الشريف والسنة النبوية قائلة: كفانا ما ورد في القرآن الكريم فقط. (المترجم)

الأحكام التي أصدرها الرسول ﷺ ليست في القرآن الكريم؟ إن هذه الآية دليلٌ ساطع على أن صدر النبي ﷺ كان بمنزلة أرض خصبة لنواة القرآن الكريم، فلما زُرعتْ فيها النواة القرآنية أخذتْ في النماء والازدهار، فما كان بمثابة نواة فقط للآخرين، أصبح دوحة كبيرة في صدر الرسول ﷺ.

باختصار، إن العقل الذي وهبه الله تعالى للنبي ﷺ هو أفضل من عقولنا على كل حال، ولذلك كان من المحال أن يفهم أحد القرآن الكريم كما فهمه الرسول ﷺ. فإننا نرى في العالم المادي أيضا أن نماء البذرة يتوقف على صلاحية الأرض التي تزرع فيها، فالنخل مثلاً لا تنبت عندنا، كما تنبت في أرض العرب، ذلك أن أرضهم أصلح لزراعة النخل. وكذلك الشمام لا يكون جيدا في كل أرض، فالشمام المزروع في منطقة الجمياري البنجابية أفضل نوعية مما يزرع في مناطق أخرى. فكما أن جودة الثمار المادية تتوقف على صلاحية الأراضي المختلفة، وكما أن البذرة المزروعة في أرض خصبة يكون ثمرها أعلى جودة من البذرة المزروعة في أرض رديئة، وكما أن بعض الأراضي تتّسم بميزات خاصة لإنبات ثمار معينة، كذلك فإن أفضل أرض أعدّها الله لزرع شجرة القرآن هي صدر محمد ﷺ. وكيف يمكن أن تكون الشجرة القرآنية المزروعة في تلك الأرض مثل الأشجار القرآنية المزروعة في أراض أخرى؟ لا شك أن هناك أشجارا قرآنية جيدة أخرى، ولكنها كلها أظلال للرسول ﷺ. إن التابع الكامل أو الأدنى سوف يقدم ثمر القرآن الكريم أمام العالم حسب كفاءته وصلاحيته. إن الثمرة القرآنية التي يقدمها التابع الكامل للنبي ﷺ تكون أفضل نوعية من الثمرة القرآنية التي يقدّمها التابع الأدنى. فإذا زرعت شجرة المانجو مثلاً في أرض فسوف تنبت بكل حال، ولكن نوعية ثمارها ستكون بحسب نوعية الأرض التي زُرعت فيها؛ فإذا كانت الأرض خصبة كانت الثمرة أعلى جودةً، وإذا كانت الأرض أدنى خصوبة كانت الثمرة أدنى جودة. إن الثمرة ذات الجودة العالية تتطلب أرضًا عالية الجودة في كل حال. إن القطن الأمريكي ينبت جيدا في منطقة "لويلبور"، ولكن لا يكون عالي الجودة في منطقتنا. والقطن المصري أعلى جودة من القطن الهندي، ولكنه لو زرع في الهند لم يكن

بنفس الجودة من حيث بياضه ومتانته، ومَن زَرَعه عندنا لم يجنِ الفائدة المرجوة؛ لأن القطن إذا كان أقلَّ متانةً وبياضًا لم يشترهِ الناس، لأن القماش المصنوع منه لا يكون عالي الجودة ولا متينا بل يتمزق بسرعة. باختصار، إن المحاصيل المختلفة تقتضي أراضيَ مختلفة، فكما أن منطقة "مليح آباد" شهيرة بالمانجو الجيد، ومنطقة "ناكبور" بالبرتقال الجيد في الهند، أو كما أن الزعفران لا يُزرَع إلا في مناطق محدودة جدا في العالم، كذلك لا تنبت شجرة القرآن لتؤتي أجود ثمارها إلا في صدر محمد ﷺ. وهذه هي الحقيقة التي بينها الله تعالى في قوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

ومن معاني شَرَح: شَقَّ وحَرَث، وعليه فقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني يا محمد، ألم نحرث أرض صدرك لنُعِدّها لزرع القرآن الكريم فيها؟ فكما أن الزروع المادية بحاجة إلى أرض ملائمة تُعَدّ لها جيدًا، كذلك ما كان لنا أن نحرث لزرع القرآن إلا أرضًا ملائمة له، فوجدنا أن صدرك هو الأرض الملائمة للقرآن الكريم، فحرثناها وأعددناها له، وسترى الدنيا الآن كيف تؤتي هذه الأرض ثمارا رائعة. وما دام الحارث والزارع هو الله ﷻ والأرضُ هي صدر محمد ﷺ، فكيف يمكن إنكار جودة هذا الزرع؟ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

باختصار، إن قوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني أن الله تعالى قد وهب لمحمد ﷺ علمًا لَدُنِّيًّا -علاوةً على إنزال القران عليه- يمكِّنه من استيعاب كل ما في القرآن من علوم وتوسيعها إلى أقصى نطاق من خلال التفقه والاستنباط، فيعلِّم بها المسلمين دينهم.

وسَعَة العلوم القرآنية لأمرٌ عجيب. فالكتاب الذي نزل على النبي ﷺ لعظيمٌ حقًا، إذ ليس هناك علم من مبادئ الاقتصاد والمدنية والسياسة والأمور الاجتماعية والميراث ودقائق الأخلاق والعبادات والمعاملات إلا ويوجد فيه مع أدقّ تفاصيله. ليس هناك فرع من فروع العلم الذي يمكن أن يخطر ببال إنسان والذي هو ذو صلة مباشرة بالدين إلا ويوجد في القرآن أحكام مفصلة بصدده. أما العلوم التي ليست

ذات صلة مباشرة بالدين فقد تناولَها القرآن أيضًا بشكل إجمالي. وإن شرح صدر النبي ﷺ بصدد كتاب عظيم كالقرآن لأمرٌ خارق بحد ذاته حقًا. فأولاً إن الكتاب الذي نزل عليه كتاب غيرُ عادي وجامع للعلوم كلها. من الممكن أن يكون هناك شخص ذكي شغوف بالقضايا الاقتصادية قد قرأ كتابا في علم الاقتصاد، فتفجرت ينابيع علم الاقتصاد من صدره. وقد يكون هناك شخص مولع بالأمور السياسية فقرأ كتابا في السياسة، فانشرح صدره لهذا المجال، فأتى بأمور مبتكرة في المجال السياسي. وقد يكون هناك شخص مولع بالقضاء وسنحت له الفرصة في المعاملات القضائية، فنبغ في القضاء لانسجام فطرته معها. ومن الممكن أن يكون شخص ذا طبع عسكري، فقرأ كتابا حول قواعد العسكرية والتعامل مع الأعداء، فابتكر قواعد رائعة في مجال العسكرية. ويمكن أن يكون هناك خبير بالأمور الاجتماعية فقرأ كتابًا حول مبادئ الاجتماع يبين أحكامًا حول الآباء أو الأبناء والأنساب والأصهار والأزواج والأصدقاء، فتدبّر في هذه العلاقات فخطرت بباله أمور جديدة في هذا المجال، لِما يوجد بين فطرته وهذا العلم من انسجام فطري. إن كل هذه الاحتمالات واردة، ولكن هناك أمران غير قياسيين وغير عاديين فيما يتعلق بالنبي ﷺ، أوّلُهما أن الكتاب الذي نزل عليه ﷺ كتاب جامع يبحث في كل علم بحثًا متكاملا من كل النواحي بحيث لا يمكن الزيادة عليه، فهو لا يبحث في السياسة ولا في القانون الدولي ولا في الأخلاق ولا في علم النفس فحسب، بل فيه تعاليم في كل مجال وعلم، فهو يبحث في العبادات والاقتصاد وحقوق الأستاذ والتلميذ والأب والابن والسيد والخادم كما يبحث في العلاقات الدولية والحرب والصلح وغيرها. باختصار، إن الكتاب الذي نزل على الرسول ﷺ كتاب غير عادي. وثانيًا هناك مسؤولية ألقيتْ عليه ﷺ بصدد هذا الكتاب غير العادي، وهي أن تتحول كل جزئيات هذا الكتاب إلى شجرة عظيمة في صدر النبي ﷺ، مما يعني أن القرآن الكريم كان بمنزلة نواة يجب أن تتحول إلى شجرة عظيمة في صدره ﷺ، وهو أمرٌ أكثرُ غرابةً، وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. والأمر الذي شرح الله صدر نبيه من أجله محذوفٌ، وليس هذا المحذوف إلا القرآن؛ وكأن

العبارة كالآتي: "ألم نشرح لك صدرك للقرآن." لو بيَّن المرء مضامين القرآن التي هي من قبيل دلالة النص فهذا في حد ذاته أمر غير عادي، ولكن الرسول ﷺ لا يكتفي ببيان علوم القرآن التي هي من قبيل دلالة النص، بل يبين أيضًا الأحكام التي هي من قبيل إشارة النص، ثم إنه يذكرها بأدقّ تفاصيلها التي ليست بمتناول العقل الإنساني، وهذا أمر خارق لا يقدر عليه إنسان إلا بفضل الله وبركته. فإننا نجد بعض كبار العلماء قد بحثوا في علم قراءة القرآن فقط، وبعضهم في لغة القرآن فقط، وبعضهم في قضاء القرآن فقط، وبعضهم في الاقتصاد في القرآن، فسُمّوا علماء أفذاذًا، أما الرسول ﷺ فلم يتناول هذه العلوم مع كل جزئياتها فحسب، بل وسّعها وفصّلها وشرحها شرحًا غير مسبوق من أي إنسان. وهذا ما قد أشار الله إليه بقوله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وهذا ما قد أشير إليه في الأحاديث التي تتحدث عن شقّ صدر النبي ﷺ. لقد روى أقارب الرسول ﷺ من الرضاعة أنه كان يلعب خارج البيت ذات يوم حين كان عند مُرضِعه حليمة التي تقول: جاء أحد إخوته من الرضاعة يعدو فزعًا ونادى: يا أَبَتِ ويا أُمَّه: "الحَقَا أخي محمدًا، فما تلحَقانه إلا ميتًا. قلتُ ما قضيتُه؟ قال بينا نحن قيام إذ أتاه رجل فاختطفه مِن وسطنا، وعلا به ذروةَ الجبل ونحن ننظر إليه، حتى شقّ صدره إلى عانته، ولا أدري ما فعل به. فانطلقت حليمة تسعى، فوجدت النبي ﷺ قاعدًا فقالت له: ما الذي دهاك؟ قال: بينا أنا قائم إذ أتاني رهط ثلاثة فشقوا صدري وغسلوا قلبي وأعادوه في مكانه وذهبوا (السيرة الحلبية: الجزء الأول ص ٩٤، ذكر رضاعه وما اتصل به). وفي رواية أنه كان على صدر النبي ﷺ أثر الشق. وفي رواية أخرى في حادث المعراج أن ملاكًا جاءه وشقّ صدره وأخرج قلبه وأعاده في مكانه بعد أن أخرج منه الشوائب. (الروض الأنف: الجزء الأول ص ٢٩١).

إن عامة المسلمين يقدمون هذا الحادث باعتباره معجزة جسدية، ولكنهم لو تدبروا لوجدوا أن ما يقولونه لا يزيد في عظمة هذه المعجزة، بل ينقصها. فالسؤال الأول هنا: ما هي تلك الشوائب المادية التي كان لا بد من إزالتها؟ فإن الذين يؤمنون بالجن والأرواح يُراعون المعقولية إلى حد كبير في بيان حكاياتها، فيقولون

مثلاً إن الجني أكل كبد فلان في لمح البصر، ذلك أنهم يتصورون -نظرًا إلى ماهية الجن عندهم- أن الجن ليسوا بحاجة إلى الشقّ والبتْر، بل يخرجون كبده ويأكلونه بمجرد النظر إليه. فما دام ضعفاء النفوس هؤلاء يعتقدون أن الجن ليسوا بحاجة إلى شق البطن ظاهرًا فكيف يعتقد هؤلاء عن الملائكة أنها بحاجة إلى الشقّ والبتر. فما دام الملائكة لا يحتاجون إلى شق بطن الجنين لخلقِ أعضائه المختلفة في رحم الأم من رئة وكبد ومعدة وطحال، فكيف يا ترى مسّتْ بهم الحاجة إلى شق صدر النبي ﷺ ظاهرا لتنظيفه؟ فكما أن الملائكة يدخلون في الإنسان بغير شق بطنه ليخلقوا فيه القلب والمعدة والدماغ والكبد وغيرها، كذلك كانوا قادرين على تطهير قلبه ﷺ بدون شق صدره.

والسؤال الذي ينشأ هنا هو: هل الملائكة بحاجة إلى السكاكين لشقّ صدره؟ يتضح من القرآن الكريم أن ملائكة الله تعمل كعلّةٍ وسببٍ في خلق الناس والجبال والأنهار وغيرها من الأشياء، ولكننا نرى أنها لا تحتاج في إنجاز هذه المهام إلى أدوات مادية من مطارق ومناشير ومعاول وغيرها، بل يخلقون كل هذه الأشياء بدون أدوات مادية. فلماذا، يا ترى، كانوا بحاجة إلى سكاكين عند شق قلب النبي ﷺ من أجل تنظيفه؟ لا شك أن هذه الرواية خلاف للعقل؛ إن الملائكة تقوم بما لا يحصى من الأعمال في الدنيا، ولكنها لا تنجزها بهذا الشكل. وحتى ولو فرضنا جدلاً أن هذا الحادث قد وقع في الظاهر، فمع ذلك لم تكن الملائكة بحاجة لشق البطن في الظاهر ولا للسكاكين. إنما أساس هذا الخطأ أنهم اعتقدوا خلافًا لتعاليم الإسلام أن الملائكة بحاجة إلى هذه الأشياء المادية، مع أنه أمرٌ لا يسلّم به هؤلاء في أحداث أخرى. فقد ورد في الأحاديث صراحة أن الملك يدخل في رحم الأم لنفخ الروح في الجنين (البخاري: كتاب القدر)، ولكن متى رأى أحد منهم الملائكة تشق بطن المرأة الحامل؟ فما داموا يعترفون أن الملائكة تقوم بهذه الأعمال بدون شق الصدور وبدون السكاكين، فلماذا يصرّون على أن شقّ صدر الرسول ﷺ كان حادثًا ماديًّا؟ نحن نؤمن أن الملائكة شقّت صدره ﷺ، ونؤمن أنها نظّفت قلبه،

ولكننا نؤمن أيضا أنها قامت بهذه العملية تمامًا كما تخلُق في الإنسان كبده وطحاله وقلبه ورئته وما إلى ذلك.

فالواقع أن هذا الحادث كان كشفًا رآه النبي ﷺ، والمعروف أن الآخرين قد يشتركون أحيانًا في كشف يراه الإنسان. لقد وقع هؤلاء القوم في خطأ اعتبار هذا الحادث ماديًا لأن ابنًا لحليمة قد رأى بعينه حادث شق صدر الرسول ﷺ، فيقولون إذا لم يكن الحادث ماديا فكيف رآه ابن حليمة؟ وأقول في الجواب: إذا كان الصحابة يمكن أن يروا جبريل مع الرسول ﷺ فكيف يستحيل أن يشترك ابن حليمة في رؤية هذا الكشف مع النبي ﷺ؟ فقد ورد في الحديث أن شخصا جاء إلى النبي ﷺ وسأله أسئلة مختلفة، فأجاب عليه النبي ﷺ، ولما ذهب الرجل قال ﷺ لصحابته: أتعرفون مَن هو؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال هذا جبريل قد جاء يعلّمكم دينكم (البخاري: كتاب الإيمان). فترى أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ وقد رآه الصحابة أيضا، فثبت أن هناك مشاهد كشفية يشترك فيها صاحبها وغيره من الناس، ولكن هذا لا يعني أنه حادث مادي .

ثم إننا لا ندري لماذا يعتبرون السكاكين مادية في هذا الحادث، ولا يعتبرون المَلَكَين ماديين؟ لماذا يعتبرون نصف الحادث ماديا ونصفه روحانيا؟

يقولون إن من الأدلة على كون هذا الحادث ماديا أثر الشق على صدر النبي ﷺ (مسلم: كتاب الإيمان). وأنا أقول: هذه العلامة الظاهرة أيضا ليست دليلا على كون الحادث ماديا؛ فقد أرى الله المسيح الموعود عليه السلام آيةً سقطت فيها على ثيابه بقعات الحبر الأحمر ظاهرًا، ولكن هذا لا يعني أن هذا الحادث كان ماديًّا، بل كان كشفًا خلق الله فيه حبرًا ظاهرا أيضًا دليلا على صدق هذا الكشف بأن الله القادر المطلق القدرة هو الذي أراه هذا المشهد (جشمه معرفت -ينبوع المعرفة- الخزائن الروحانية المجلد ٢٣ ص ٤٣٢-٤٣٣). فرغم أن هذا الحادث لم يكن ماديًّا إلا أن الله تعالى جعل عليه علامة ظاهرة، وبالمثل إذا كان على صدر النبي ﷺ علامة ظاهرة للشق، فهذا لا يعني أن الحادث كان ماديًّا أو أنه كانت في قلبه شوائب مادية دعت إلى غسله وتنظيفه.

باختصار، من الخطأ القول أن ما جرى مع النبي ﷺ كان حادثا ماديًّا، كلا بل كان كشفًا أرى الله نبيَّه إياه، وإرساءً لعظمته وحبه ﷺ في أسرة مرضعه حليمة أشرك الله تعالى أحد أبنائها أيضًا في هذا الكشف، إذ عِلم الجميعُ من خلال شهادته أنه سيكون لهذا الولد "محمدٍ" ﷺ شأن عظيم، ثم لكي يؤكد الله تعالى لهم أنه هو الذي أراه هذا الكشف جعَل علامة ظاهرة على صدر محمد ﷺ ليكون الجميع شاهدين على هذا الحادث؛ وذلك كما ألقى الله قطراتِ الحبر الأحمر على ثياب المسيح الموعود عليه السلام في الظاهر، ليكون الناس شاهدين على هذه الآية. لا شك أن الروايات الصحيحة لا تذكر وجود علامة ظاهرة على صدر الرسول ﷺ، ولكننا لسنا بحاجة إلى إنكارها، فما دام الله قادرا على خلق قطرات الحبر الأحمر على ثياب المسيح الموعود عليه السلام، فلا غرابة في أن يجعل علامة ظاهرة على صدر النبي ﷺ تأكيدًا لهذا الكشف. ففيما يتعلق بوقوع هذا الحادث على شكل كشف من الكشوف الروحانية، فلا ننكر صحته، ولكن فيما يتعلق باعتباره حادثا ماديا فهذا خلاف للعقل عندنا، وإلا فلزم القول إن الإنسان إذا عمل سيئة كانت نكتة سوداء مادية في قلبه، وإذا عمل حسنة كانت نكتة بيضاء مادية في قلبه، مع أن أخذ هذا الحديث بالظاهر، خلاف الواقع؛ فقد تقدمَ علم تشريح الجثث كثيرًا وقد قام العلماء بتشريح ملايين الجثث وفحص التغيرات الحاصلة في جسد الإنسان نتيجة الأمراض المختلفة، فلو سلّمنا أن السيئة تترك نقطة سوداء مادية في القلب وأن الحسنة تترك نقطة مادية بيضاء فيه لاعتبرنا كثيرًا من المسلمين كفارًا وكثيرًا من الكفار مسلمين، إذ يموت كثير من المسلمين خنقًا ولا بد أن تكون قلوبهم سوداء في الظاهر، أما الهندوس والسيخ وغيرهم الذين لا يموتون خنقًا فلا بد أن تكون قلوبهم بدون هذا السواد.

الواقع أن ما رآه الرسول ﷺ في صغره كان كشفًا؛ لقد جاءه الملاك في حالة الكشف وشقّ صدره وأخرج قلبه وطهّره، ثم أعاده إلى مكانه. لا شك أن هذا الحادث غير مقبول في الظاهر، ولكن قبوله في حالة الحلم أو الكشف ليس بمستبعد مطلقا، إذ يمكن في الرؤيا إخراج عشرة قلوب من الصدر وتنظيفها، دعك من قلب

واحد، ولا غرابة في ذلك لأن الرؤيا بحاجة إلى التأويل دائما. فيمكن أن يرى المرء في المنام شخصًا بعشرة رؤوس، مع أنه لا يكون لأحد عشرة رؤوس في الواقع، وحيث إن المنام بحاجة إلى التأويل، فنؤوّل هذا الحلم وفقًا لظروف الرائي؛ فإذا كان ذا خُلُق فتأويله رجاحة عقله وحدّة ذكائه، لأن الإنسان العادي يفكّر برأس واحد أما هو فيفكّر بعشرة رؤوس؛ وأما إذا لم يكن الرائي على خُلُق حسن فتأويله أنه يفتقر إلى الاستقامة والثواب، لأن رؤوسه العديدة تشير إلى أنه لا يتمسك برأيه، بل يقول قولاً مرة ويغيّره مرة أخرى.

إذن، فيمكن أن يكون لحلم واحد تأويل حسن أو سيئ نظرًا إلى حالة الرائي. كذلك يمكن أن يرى المرء في الرؤيا أو الكشف أن له عشرة قلوب، كما يمكن أن يرى أن قلبه أُخرج من صدره وأن الملاك نظّفه ثم أعاده إلى مكانه.

فالواقع أن عامة المسلمين قد وقعوا في هذا الخطأ لعدم فهمهم حقيقة الكشوف، وإلا فيمكن أن يرى المرء في حالة الكشف على قلبه سوادًا، كما يمكن أن يرى قلبه قد امتلأ نورًا، إنما الفرق أن الرؤيا إذا كانت باطلة فلن يحصل صاحبها على شيء مهما رأى من مناظر عظيمة، أما إذا كانت رؤياه من عند الله تعالى فسوف ينال جزاء وإنعاما. فمثلا إذا رأى المرء أن رأسه أخذ يكبر حتى صار ضخما جدا، فتأويله العلم الغزير والذكاء الخارق (تعطير الأنام: كلمة الرأس)، فإذا كانت رؤياه من الله تعالى فسوف يرى بعد فترة أنه قد ازداد علمًا وذكاءً بالفعل، ولكن إذا كان حلمه من قبيل أضغاث أحلام فلن يجد شيئا. فقد تدخل في أذن البعض نملةٌ وهو نائم، فيرى في المنام أن هناك حربًا والمدافع تنطلق والطبول تدقّ والضجة تملأ العالم كله. وقد يكون في أذنه كتلة من الوسخ، فإذا دخل الهواء في أذنه وحرّك الكتلة وهو نائم رأى أن البرق يلمع والسحاب يرعد والبرد ينزل وأن هناك دمارا شمل العالم كله، مع أن كل ما في الأمر هو هذه الكتلة من الوسخ. كذلك قد يلسع الزنبور المرءَ وهو في نوم عميق، فيرى في المنام أن رأسه قد تضخم، وفي هذه الحالة ليس تأويلُ ضخامةِ الرأس رجاحةَ العقل، بل كل ما في الأمر أن زنبورا قد لسعه وهو نائم، فشعوره غير الواعي قد صوَّرَ له الأمر على هذا النحو.

مرة جاء إلى قاديان شخص وقال: إذا كان مؤسس الأحمدية يتلقى وحيًا أن له مكانة عظيمة عند الله، فإن الله تعالى يقول لي أيضا كل يوم: أنت موسى وعيسى ومحمد. وحاوَلَ الناس وعظه ولكنه لم يتعظ حتى ذُكر عند المسيح الموعود عليه السلام فقال: ائْتوني به، أو قال قولوا له: إذا كان الله تعالى يخاطبك قائلاً: أنت عيسى، فهل يعطيك آية خلق الطير كما أُعطيَها عيسى، أو هل تحيا الأمواتُ على يدك كما كانت تحيا على يده؟ وإذا كان الله تعالى يقول لك: أنت موسى، فهل يمنحك اليد البيضاء كما منحها إياه؟ أو حين يناديك الله قائلا: يا محمد، فهل يشرّفك بمقام ﴿دَنَا فتَدَلَّى * فكان قابَ قوسينِ أو أدنى﴾(النجم:٩-١٠) كما شرّف به محمدا ﷺ، أو هل يهب الله لك آية الفصاحة والبلاغة كما وهبها للنبي ﷺ؟ فقال الرجل: لا أجد مثل هذه الآيات. فقال المسيح الموعود عليه السلام: فاعلم أن الله لا يكلّمك، بل الشيطان هو الذي يقول لك أنت عيسى وموسى ومحمد، إذ لو وهبك الله تعالى هذه المكانة لأنعم عليك بالنعم اللائقة بها أيضًا.

كذلك يمكن أن يرى أيُّ إنسان أن صدره قد شُقَّ وأن قلبه قد نُظِّف وأعيدَ إلى مكانه، إلا أن صدره سيظل ضيقا، أما الذي يطهِّر الله قلبه حقًا ويعيده إلى صدره بالفعل فيصبح صدره أوسع آلاف المرات. فلو كانت شهادة أخٍ للنبي ﷺ من الرضاعة عن شق صدره باطلة فكيف شُرح صدره فعلا؟ كان ينبغي أن لا ينشرح صدره في هذه الحالة، ولكننا نرى أنه بعد أن شُقّ صدره وطُهِّر قلبه شهدت الدنيا أنه ﷺ قد أعطى تعاليم ومعارف لا نظير لها في كل علم ومجال. فما من مجال من مجالات العلم إلا وقدّم النبي ﷺ فيه تعاليم سامية بريئةً من أي نقص وعيب مستنبطًا إياها من القرآن الكريم، كالعاكس الذي يعكس الضوء بصورة أقوى وأجلى. فإننا إذا نظرنا إلى هذه الوقائع لم نجد بُدًّا من الاعتراف بأن الذي شَقَّ صدره ﷺ كان ملاكًا بالفعل، وإلا فما الفضل في مجرد تطهير القلب وإعادته إلى الصدر؟ فلن يجري في قلبه إلا الدم الذي جرى قبل الحادث وبعده أيضا. إن عظمة هذا الحادث لا تكمن في جانبه المادي بل في جانبه الروحاني، وإليه أشار قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.. أي ألم نُرِكَ في الصغر هذا المشهد؟ ألم نخبرك منذ طفولتك أننا

سنـــزوّدك بكفاءات عالية في يوم من الأيام؟ هذا هو تأويل هذا الحادث الكشفي، مما جلّى صدقه ﷺ جلاءَ الشمس في كبد النهار. وإلا فلسنا لنصدّق أنه كـــان في قلب الرسول ﷺ سوادًا أزالته الملائكة –والعياذ بالله– كلا، بل كان قلبه نقيًّا قبـــل هذا الحادث أيضا، وليس المراد مِن تنظيفه إلا أن الله تعالى زوّده بكفاءات خارقـــة وبآفاق جديدة للعلوم، وليس أن نجاسة كانت بقلبه –والعياذ بـــالله– فأزالهـــا الله بواسطة الملائكة.

ومن معاني قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أننا خلقنا فيك قـــوة الـــصبر والحلم بشكل منقطع النظير. فشرح الصدر إشارة إلى أنه لا يضيق صدره ﷺ بأي محنة، بل إنه يتحمل كل أذى ببشاشة قائلا إن كل ما يأتي من الحبيب خير. كـــان ﷺ يعلم أن الله تعالى يعامله معاملة خاصة، وأنه يعيش تحت تصرّف رباني تام، وأن كل ما يفعل الله به يكون خيرًا في النهاية وإنْ بدا شرًّا، ولذلك ما كان ﷺ يفـــزع عند حلول النوائب. وبالفعل نجد أنه قد حل بالنبي ﷺ شتى المحن، فلم تصبه بالفزع والقلق، إنما تحمَّلها بسكينة واطمئنان؛ وكأنه ﷺ على يقين أن كل ما يأتيه من الله خير له، لأن الله تعالى وليُّه لا عدوّه، وأنه تعالى سيكتب له النجاح وسيلقي عدوه في الحضيض. كان الناس يسبّونه ويعيبونه ويحيكون ضده المؤامرات الخطيرة، فلـــم يكنْ ﷺ يبالي بها مطلقا، ولم يردّ عليهم بلسانه بسوء. نرى أن أحدًا إذا اصـــطدم بغيره خطأً أثناء المشي ثار غضبًا ونعَته بالعمى؟ ولكننا نرى أنه لما فتح الرسول ﷺ مكة ونال الغلبة الحاسمة بحيث خضعت له العرب أجمعين، جاءه أعرابي وقـــال لـــه بكل قسوة: أَعْطِنِي حصّتي من الغنيمة كما أعطيت الآخرين نصيبهم. فثار الصحابة غيظًا وأبعدوه عن الرسول ﷺ ولاموه على هذه الوقاحة. ولكن النبي ﷺ لم يقل له شيئًا، بل قال لو كان عندي مال لأعطيتك، لكني وزّعته على الناس ولم يبقَ عندي شيء.

هذا هو الصبر والحلم المنقطع النظير. لا شك أنه كان ينصح الناس وينهاهم عن سيئاتهم ويسخط عليهم في محل السخط، ولكنه لم يفقد السيطرة على نفسه في أي موقف.

إذن، قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني أن الناس يسبّونك فلا تأبهُ بهم ويؤذونك فلا تكترث لأذاهم، فعندك من الصبر والأناة ما يجعل معارضة الأعداء واضطهادهم المتتالي لا يزعزع أقدامك الثابتة.

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

وِزْرَك: الوِزْرُ: الثقل. (الأقرب)

التفسير: لا شك أنه لا بد للنجاح من الشجاعة والصبر، وهما في الدرجة الأولى، والأمر الثاني الذي لا بد منه للنجاح هو تيسُّرُ الأسباب اللازمة للعمل. وفي هذا أيضا نجد النبيَّ ﷺ أفضلَ من موسى عليه السلام. لقد سبق أن بيّنتُ لدى شرح الآية السابقة أن موسى دعا ربه ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(طه:٢٦)، بينما نجد الله تعالى يقول هنا لنبيه ﷺ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. وكان موسى عليه السلام دعا ربه وقال ﴿واجْعَلْ لي وزيرًا مِن أَهْلي﴾(طه:٣٠)، بينما قال الله لرسوله الكريم بصيغة الماضي ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾، وهكذا أشار إلى فضيلة أخرى للنبي ﷺ على موسى عليه السلام. لقد شعر موسى أنه بحاجة إلى مَن يحمل عنه حمله، فسأل الله تعالى أن يعطيه مساعدا من أهله، أما الرسول ﷺ فيقول الله تعالى له لقد آتيناك بدون سؤال منك أصحابًا لا يشاطرونك أثقالك فحسب، بل سيحملون عنك كل الأثقال التي قد أنقضت ظهرك.

والواقع أنه قد أُلقيَ على النبي ﷺ عبءٌ لا يقدر على حمله أي إنسان؛ فكان عليه أن يُصلح العالم كله، ويُدخل في الإسلام الدنيا كلها، وأن يقضي على المساوئ والعيوب المنتشرة في العالم أجمع. كان ﷺ يرى أنه وحيد فريدٌ لا يستطيع الوصول إلى كل شخص ولا يقدر على إقناع كل واحد. كان إدخال كل إنسان في الإسلام يتطلب عشرات السنوات في الظاهر، إذ كان بين عقائد الناس وأحكام الإسلام ما بين الأرض والسماء. كانوا يعبدون أصناما كثيرة، في حين أعلن القرآن

أن الأصنام لا حقيقة لها. كانوا يستسيغون الكذب والخداع والغش والخيانة والسطو والقتل وغيرها من المنكرات، بينما كان الإسلام يحرّمها كلية. لم يكونوا يعرفون ما العبادة، أما الإسلام فيدعو الإنسان ألا يبرح العتبة الإلهية في أي حين. كان هناك اختلاف كبير في التعليم والعبادة والعادات والتقاليد والطموحات. ثم لم يكنْ أهلُ مكة يؤمنون بنزول الوحي، ولكن القرآن أعلن وأكد نزول الوحي. كما أنهم لم يكونوا يؤمنون بقدرة الله الخاصة، ولكن القرآن يعلِّم ويدلِّل على وجوده ﷻ بآيات قدرته الخارقة. ثم إنهم كانوا يتفاخرون كل حين بأنهم أحرار لا يخضعون لأحد، ولكن القرآن يدعو الناس أن يجتمعوا على يد واحدة ويصلحوا أنفسهم والأمم الأخرى خاضعين لنظام موحد، وكان الإسلام يريد أن تخضع كل أعمال الإنسان من قيام وقعود ونوم ومشي لنظام واحد. باختصار، لم يكن هناك مجال من مجالات الحياة يمكن أن ينسجم فيه المشركون العرب مع تعاليم القرآن الكريم. كان القرآن يتدخل في أفكارهم وأخلاقهم وعقائدهم وسياستهم واقتصادهم. فيمكن للمرء تقدير ضخامة الصعاب التي كان على النبي ﷺ أن يكابدها في سبيل إقناع الناس بأحكام الإسلام الكثيرة المفصلة، ولكن كان فضل الله عليه عظيمًا، فلما بلّغ زوجتَه بنزول أول وحي عليه لم تقلْ له: ما هذه البدعة التي جئتَ بها، وإنما قالت: "وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ (البخاري، كتاب بدء الوحي).. أي لا تقلق، فإن ما جئتَ به حق وصدق، وأن الله تعالى لن يضيعك أبدًا، لأنك تصل الرحم وتحمل أثقال الضعفاء، وتعمل الحسنات التي قد غابت عن الدنيا، وتطعم الضيوف وتعين أهل الحق عند المصائب. ثم أخذته زوجته إلى ابن عمها –ورقة بن نوفل– الذي كان عالمًا في العلوم الإسرائيلية. فما إنْ سمع من النبي ﷺ حكايته حتى قال: هذا الناموس (الوحي) الذي نزل على موسى عليه السلام (مسند الإمام أحمد، المجلد السادس، حديث عائشة رضي الله عنها) وهو يشتمل على الأحكام والتعاليم التي تشبه ما نزل على موسى من وحي.

وكان في بيت النبي ﷺ ابن عمه (عليّ ﷺ) الذي كان فتى يافعًا يمكن أن يكون وسيلة ناجعة للتبليغ. فلما رأى هذا الفتى ابن عمه (محمدًا ﷺ) وزوجته يتحدثان بجدية عن هذا الحدث الهام تقدّمَ إليه بوقار وقال: إني أؤمن أنك صادق وأن الله هو الذي كلّمك وبعثك لإصلاح الدنيا.

وكان للنبي ﷺ عبد قد أعتقه، وقد سحرته أخلاقه ﷺ فآثر البقاء عنده ﷺ بدلاً من والديه، فلما سمع أهل البيت يتحدثون حديثًا خافتًا وأماراتُ الهم والقلق تعلو وجهَ سيده ﷺ تقدّمَ إليه وأمسك بأهدابه وقال سيدي لن يحدث إلا كما رأيت، فلن يخذل الله إنسانًا مثلك، بل لقد آن الأوان لإصلاح الدنيا على يديك، فاسمحْ لي أن ألازمكم وأنصركم.

وكان للنبي ﷺ صديق حميم وحيد وكانا كلؤلؤتين قد تربّيتا في صَدَفَة واحدة، فسمع أن صديقه محمدًا قد افترى على الله ويبدو أنه قد مسه الجنون، فما كان منه إلا أن سارع إلى بيته ﷺ وطرق عليه الباب، وقال له: أصحيح ما سمعتُ عنك؟ فأراد النبي ﷺ توضيح الأمر له، فقال: أستحلفك بالله أن لا تقدِّم لي أي دليل على ما تقول، بل أخبرْني فقط أصحيح ما يقال عنك؟ فقال النبي ﷺ: نعم. فقال أبو بكر: يا صديقي الصدوق، أشهدُ أنك رسول الله. لقد كدتَ تجعل إيماني ضعيفًا يحتاج إلى الأدلة على دعواك. يا صديقي، كيف يمكن أن يشكّ في دعواك من رأى وجهك؟ (تاريخ الخلفاء للسيوطي: أبو بكر الصديق ﷺ)

كانت المعارضة أمرًا محتمًا، كما كان ورقةُ بن نوفل قد أخبرَ النبيَّ ﷺ قائلا: "لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِيَ" (البخاري، كتاب بدء الوحي). فانظروا كيف آتاه الله تعالى أصحابا قبل هبوب عاصفة المعارضة. كان في مكة عالِمٌ إسرائيلي واحد هو ورقة بن نوفل، فصدق النبي ﷺ بمجرد أن سمع قصة نزول الوحي عليه. أما زوجته خديجة فبدأت تُطَمْئنه وتدعو له بعد سماع خبر نزول الوحي عليه. أما عليّ "ابن عمه" الذي كان لا يزال صغيرًا وكان شاهدًا على سموّ أخلاقه في البيت– فقدّم نفسه لنصرته وخدمته ﷺ. أما "زيد" عبده العتيق الذي سحرته أخلاقه ﷺ بعد أن شاهدَ أمانته في التجارة ورعايته للفقراء لفترة طويلة،

فجعل يحلف على صدقه ﷺ. أما أبو بكر.. صديقُ طفولته الذي كان من أشراف مكة.. فبمجرد أن سمع عن دعواه ﷺ صار من غلمانه وخدامه. لا شك أن هذا الإخلاص الذي رآه النبي ﷺ من هؤلاء الخدام، قد غمر قلبه غبطة وسرورا. لا جرم أنه عندما كان يسمع ضجة أهل مكة ومطاعنهم كان يبتسم ويقول في نفسه: هذا حُكْمُكم أنتم الذين لا تعرفونني، ولكن انظروا إلى حُكْم الذين يعرفونني، وكيف أنهم مستعدون لحمايتي من اليمين والشمال، ويفدونني بالأرواح. لقد سأل موسى عليه السلام ربَّه أن يعطيه وزيرًا لحمل أعبائه، أما محمد ﷺ فقد أعطاه الله تعالى بدون سؤال خمسة وزراء حملوا عنه وزره إلى أقصى الحدود. لا شك أن ورقة بن نوفل تُوفي بعد فترة وجيزة من حادث بدء الوحي، ولكنه قدَّم على صدق النبي ﷺ شهادة لن تنمحي أبد الدهر. أما خديجة -رضي الله عنها- فكانت سندًا له لاثنتي عشرة سنة بما يُخجل أشجعَ الشجعان. أما زيد فقد ضرب مثالاً رائعا للتضحية لعشرين سنة، وأخيرًا أراقَ دمه تحت ظلال السيوف مؤكدًا للناس نوعيةَ وزراء النبي ﷺ. أما أبو بكر وعليّ فعاشا بعد وفاته ﷺ وصارا وزراء له كخلفاء أيضًا.

لو تدبّرَ الشيعةُ هذه الآيةَ لوجدوها حاسمةً لقضية الخلافة. فقد وردت في القرآن آيةٌ مشابهة بحق موسى عليه السلام إذ دعا ربه ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾(طه:٣٠). ولا خلاف حول معنى هذه الآية؛ وهو أن موسى لما كُلِّف بالرسالة فكّر في معارضة الناس له، فلم يلبث أن سأل الله تعالى أن يؤتيه من يساعده في حمل عبئه، بينما يقول الله تعالى هنا للنبي ﷺ ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾. فمَن هم هؤلاء الذين آمنوا به ﷺ فورا ليكونوا وزراءه، حسب هذه البشارة الإلهية؟ لا شك أنهم هؤلاء الخمسة المذكورون آنفًا. ولا يحق للشيعة أن يحتجوا أن ثلاثة منهم قد توفوا في حياة النبي ﷺ، ذلك أن هارون أيضا توفي في حياة موسى. وحتى لو أخرجنا من هذه القائمة الثلاثة المتوفين في حياة النبي ﷺ يبقى هناك أبو بكر وعليّ، وكلاهما قد ساعد النبي ﷺ في حمل أعبائه حسب هذه الآية، وإن الإساءة إلى أي منهما هي بمثابة تكذيب للقرآن واستهزاء به.

إننا نرى أن كثيرًا من المدعين بمجرد أن يعلنوا دعواهم يشرع الناس في اتهامهم بالجنون، فتقول زوجته إن عقله قد اختلّ، ويقول ابنه أنه مصاب بالخبل، ويقول أصدقاؤه أن فيه مسًّا من الجنون. يبحث هؤلاء المدَّعون عن أتباع لهم فلا يجدون. لا شك أن بعضهم قد آمن به أقاربه، ولكن نرى أنهم لا يجدون أي أتباع في بداية دعوتهم في معظم الأحيان، وإذا وجدوا كانوا جاهلين. أما الرسول ﷺ فقد أصبح هؤلاء الخمسة صيدًا لروحانيته في أول يوم من بعثته. عندما دعا موسى ربه ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ لم يقبل الله دعاءه فورًا، بل أمره أن يواصل سفره حتى يصل مصر، وهنالك يجد هارون وزيرًا له، أما النبي ﷺ فوجد خمسة وزراء منذ اليوم الأول بدون أي دعاء أو سفر أو مشقة وعناء. والحق أن هؤلاء هم الخمسة المباركة الحقيقيون الذين بدأ بهم الإسلام. لا شك أن هناك خمسة مباركة آخرون من أولاد النبي ﷺ الماديين، أما من حيث الروحانية فوهبه الله هؤلاء الخمسة المباركة منذ أول يوم، وكان كلّ منهم فدائيا مخلصا له. فقوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يعني أننا أزلنا عنك عبئك وأقمنا لنصرتك أناسًا حملوا عنك هذا العبء قائلين: يا رسول الله، نحن مستعدون لحمل هذا العبء عنك.

ثم بعد فترة وجيزة وجد النبي ﷺ أتباعا آخرين من أمثال طلحة والزبير وعمر وحمزة وعثمان بن مظعون. كان كلٌّ منهم فدائيا مخلصًا مستعدًا لإراقة دمه بدلاً من عَرق الرسول ﷺ. لا شك أن النبي ﷺ قد تعرضَ لأنواع المحن والأذى ثلاثة عشر عاما، بيد أنه كان مطمئنا أنه قد آمن به من أهل مكة أهلُ عقل ورأي ومكانة وتقوى وطهارة، وأن المسلمين أصبحوا الآن قوة يحسب لها حسابها. وعندما كان أحد من أهل مكة يتهم النبي ﷺ بالجنون كان زملاؤه يقولون له: كيف تتهمه بالجنون وقد آمن به وصدّقه فلان وفلان من أهل الرأي والذكاء! وهذا جواب ما كان لأحد أن ينقضه. إن الكتّاب الغربيين لا يألون جهدًا في معارضة النبي ﷺ ولا يتورّعون عن الإساءة له ﷺ، ولكن عندما يأتي ذكر أبي بكر يقولون إنه كان إنسانا نزيهًا لم يكن به طمع شخصي، فيرد عليهم كتاب غربيون آخرون: فكيف يكون

كذابًا مَن صدّقه شخص كأبي بكر؟ إذا كان أبو بكر شخصا نزيهًا حقًا، فكيف اتّبع طمّاعًا؟ إذا لم يكن طمّاعًا فلا بد لكم من الاعتراف أن سيده أيضًا لم يكن طمّاعًا. وهذا دليل قوي لا يمكن نقضه بسهولة. ونحن نرى أن الناس قد اتهموا المسيح الموعود عليه السلام بالجهل، فردّ الله على طعنهم بأن جعَل شخصًا بمكانة المولوي نور الدين رضي الله عنه يصدّقه منذ بداية بعثته. ثم إن المولوي محمد حسين البطالوي أيضًا كان يثني خيرًا عليه عليه السلام قبل دعواه. ثم أقام الله تعالى جماعة من المثقفين بجنبه عليه السلام فور دعواه، كان بعضهم علماء وبعضهم أثرياء، وبعضهم من ذوي الثقافة الإنجليزية الحديثة. والواقع أن الرعب يُبَثّ بثلاثة أشياء: الإيمان أو العلم أو المال، وقد أعطى الله المسيح الموعود عليه السلام هذه الثلاثة؛ فقد وهبه أناسًا ذوي صلاح ونور وإيمان وكانوا من المشايخ الكبار، كما وهبه كبار القوم والأثرياء، كما أعطاه أتباعًا من ذوي الثقافة الحديثة الذين يستطيعون أن يتركوا أثرًا طيّبًا على الشباب والمثقفين؛ فإذا اتهم أحدُهم حضرتَه عليه السلام بالجهل قام ضده آخرون من قومه وقالوا: كيف تتهمه بالجهل وقد اتبعه طلاب الكليات والجامعات؟ وإذا اعترض شخص أنه عليه السلام جاهل بالدين ردّ عليه زملاؤه: كيف تتهمه بذلك وقد اتبعه كبار المشايخ؟ وإذا اتهمه أحد أنه عليه السلام يريد الدنيا والمال رد عليه الناس: إذا كان يحب الدنيا فلماذا يسارع إليه أمراء وأثرياء حتى صاروا يضحّون بثرائهم في سبيل الدين بعد أن كانوا منغمسين في الملذات؟

باختصار، قد وهب الله تعالى للمسيح الموعود عليه السلام أتباعًا من كل شريحة من شرائح المجتمع: علماء وأثرياء ومثقفين ثقافة حديثة، وذلك ردًّا على طعن الناس أنه جاهلٌ غير مثقف أو محبٌّ للدنيا أو جاهلٌ بالدين. وهذا هو حال النبي ﷺ حيث منحه الله تعالى أتباعًا من كل شرائح المجتمع وطبقاته. كان عثمان وطلحة والزبير من كبار عائلات مكة، فإذا قيل أنه قد آمن بمحمد صغار الناس دون الكبار، فكان عثمان وطلحة والزبير موجودين للرد عليهم، وإذا قيل أن محمدًا قد جمع حوله كبار القوم والأثرياء ولم يدخل في دينه الفقراء الذين هم الأكثرية في العالم، فكان زيد وبلال وغيرهما موجودين للرد على هذا الطعن، وإذا قيل أن ما يدعو إليه محمد هو

مما يلهو به الشباب الأغرار، فكان الناس يردّون: هل أبو بكر من الأغرار، فكيف آمن بمحمد؟ فما كانوا يأتون بدليل إلا وكان أصحاب النبي ﷺ مستعدّين لدحضه. وكان هذا فضلاً من الله كبيرًا على النبي ﷺ، وهذا ما أشار الله إليه بقوله ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.. أي يا محمد، ألا يرى هؤلاء القوم أننا قد يسّرنا لك كل الأسباب التي ينجح بها المرء. فإذا كان النجاح منوطًا بوجود الشباب المتحمسين للتضحية، فهم موجودون عندك، وإذا كان المرء ينجح بمساعدة الشيوخ المحنَّكين، فهم أيضا في صفوفك، وإذا كان المرء يهزم الآخرين بمساعدة كبار القوم ذوي النفوذ، فهم أيضا معك، وإذا كان النجاح يُكتب لأحد بتضحيةِ وولاءِ عامة الناس، فكل هؤلاء العبيد يجرُون وراءك تابعين مخلصين. فكيف يمكن، والحال هذه، أن تلقى الهزيمة وينتصر عليك أهل مكة؟

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.. يعني أننا قد حملنا عنك بأنفسنا العبءَ الذي كان قد قصم ظهرك. لما رأيت المهمة الملقاة عليك قلت في حيرة: كيف أنجز هذه المهمة الصعبة؟ فأعطيناك خمسة وزراء منذ أول يوم، فجعلنا أبا بكر وخديجة وعليًا وزيدًا وورقة بن نوفل خمسةَ أعمدةٍ لسقف بناء الإسلام، وهكذا حملوا جميعًا ذلك العبء الذي كان عليك أن تحمله وحدك.

ومن معاني هذه الآية أننا آتيناك تعليمًا يغزو القلوب من تلقائه. إن من التعاليم ما يكون جيدًا في الظاهر، ولكنه يحتوي على أمور فلسفية يصعب على الناس فهمها، ولذلك لا ينال القبول بين القوم إلا التعليم الذي يكون سهلَ الفهم وموافقًا لجميع الطبائع والأمزجة. فمن معاني قوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أنك كنت ترى أن نشر تعاليمك أمر صعب، ولكننا قد أضفينا عليها من الجمال والجاذبية ما يجذب إليها الناس من كل الشرائح. كان العرب يهضمون حقوق النساء، ولكن القرآن حافظَ عليها، وكانوا يعاملون العبيد بوحشية، ولكن الإسلام قد رفع مكانتهم بحيث لم يستمر الرقّ بعده في العالم. كان العرب لا يعدلون في توزيع الإرث، وكانوا يهضمون حقوق الوَرثة مستغلّين مكانتهم ونفوذهم، ولكن الإسلام أزال هذا العيب، وجعل لكل الوَرثة حقوقهم

الشرعية. فكل من يطّلع على هذا التعليم الحسن لا بد أن يفتح قلبه بصحته، ولذلك يخبر الله تعالى رسوله ﷺ هنا: أنه لو كان تعليمك ذا طابع فلسفي ملتويًا لتعذرَ على الناس الإيمان بك، ولكننا أعطيناك تعليمًا موافقا للفطرة الإنسانية، فكل مَن كان طيب الفطرة آمن به فور سماعه.

هناك طريفة كثيرًا ما تخطر ببالي وهي أن شخصًا باسم "ميان نظام الدين" مِن مدينة "لُدْهيانه" كان على صلة مع المسيح الموعود عليه السلام، وكان صديقًا للمولوي محمد حسين البطالوي أيضا، فلما سمع من البطالوي أن حضرته عليه السلام يدّعي أن المسيح الناصري عليه السلام قد تُوفي، قال في نفسه إن حضرته عليه السلام إنسان صالح جدا، ويبدو أن هذه تهمة تلصق به، أو أن حضرته وقع في سوء فهم، إذ كيف يمكن أن يعرض على الناس دعوى مخالفة للقرآن الكريم؟ فقرر الذهاب إلى قاديان لينصح حضرته ويقنعه بالتخلي عن هذه الدعوى، وكان عنده أمل كبير أن حضرته عليه السلام سيقبل نصحه لأنه عليه السلام لا يتكلم بخلاف القرآن. فجاء إلى قاديان وقال للمسيح الموعود عليه السلام سمعتُ أنك تقول بوفاة المسيح عليه السلام؟ فقال: نعم، هذا صحيح. قال: ظننت أن الناس يشيعون عنك أمرًا خاطئًا، ولكنك تقرّ بذلك! كيف تدعي ذلك والقرآن يقول بحياة المسيح؟ فقال عليه السلام: يا نظام الدين، إني أؤمن بكل ما في القرآن الكريم، ولو ثبتتْ حياة المسيح عليه السلام من القرآن فسوف أتخلى عن موقفي حالاً. قال: هذا بالضبط ما كنتُ أقوله للناس بأن حضرة الميرزا لا يمكن أن يخالف القرآن، ولا بد أنه قد حصل له سوء فهم، ولو كشفنا عليه الحقيقة وأثبتنا له حياة المسيح فلا بد أن يتراجع عن دعواه، فأرجوك الآن أن تظل ثابتا على موقفك هذا؛ فهل تترك دعواك إذا أتيتك بمائة آية قرآنية تؤكد حياة المسيح عليه السلام؟ فقال المسيح الموعود عليه السلام: دَعْك من مائة آية. إني أؤمن بكل كلمة في القرآن، فلو أتيتني بآية واحدة فسوف أتخلى عن دعواي. قال: حسنًا، إذا لم تكن مائة آية، فسوف آتيك بأربعين أو خمسين آية على الأقل. فهل تترك دعواك عندها؟ قال عليه السلام: هاتِ آية واحدة، ولا حاجة لخمسين آية. قال: حسنًا، سآتيك بعشر آيات حتمًا. ثم غادرَ قاديان حالاً إلى لاهور حيث كان مولانا نور الدين رضي الله عنه قد جاء من جامون في

إجازة ليحدّد شروط المناظرة التي كان يريد خوضها مع المولوي محمد حسين البطالوي. وكان البطالوي كثيرَ التفاخر، فكان قد نشر إعلانًا بأن الميرزا (مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية) لم يخرج لمناظرتي، وقد خرج نور الدين لمبارزتي وسنرى كيف ينجو من قبضتي! واستمر الطرفان في تحديد شروط المناظرة لأيام، ذلك لأن مولانا نور الدين ﵁ كان يصرّ على أن القرآن حَكَمٌ بيننا لتصفية كل ما شجر بيننا من قضايا، وعلينا أن نحتكم إليه، بينما البطالوي كان مصرًّا على أنه لا بد من الاحتكام إلى الأحاديث أيضا في المناظرة. وبعد جدال استمر عدة أيام رضي مولانا نور الدين ﵁ بأن يضيف صحيح البخاري إلى جانب القرآن الكريم من أجل المناظرة، ففرح البطالوي بذلك، وأخذ يتفاخر بين زملائه جالسًا في مسجد "تشينيانوالي" في لاهور قائلاً: لقد قال نور الدين كذا، فنقضت قوله هكذا، وفعل نور الدين كذا فصرعته هكذا، حتى لم يجد بدًا من إضافة صحيح البخاري إلى القرآن الكريم للمناظرة بيننا. وفيما هو يتفاخر بين زملائه حتى دخل عليه "ميان نظام الدين" وقال: أيها الشيخ، دَعْك من هذا الحديث؛ واكتبْ لي عشر آيات من القرآن على حياة المسيح ﵇، فقد جئت حالاً مِن عند حضرة الميرزا من قاديان بعد أن أقنعتُه بأني لو أتيته بعشر آيات من القرآن على حياة المسيح، فسوف يتخلى عن دعواه، فاكتبْ لي عشر آيات بسرعة. وكان "ميان نظام الدين" قد اشترط على المسيح الموعود ﵇ أنه إذا أثبتَ حياة المسيح ﵇ من القرآن فلا بد أن يتوب عن عقيدته في المسجد الملكي الشهير بلاهور، وكان ﵇ قد رضي بشرطه، ففرح "ميان نظام الدين" فرحًا كبيرا وأصرّ على البطالوي قائلا: ما هذه المناظرات التي تريد الخوض فيها؟ اكتبْ لي عشر آيات، فسوف أجعل حضرة الميرزا يتوب في المسجد الملكي بلاهور. فلما سمعه البطالوي الذي كان يتباهى بانتصاره على مولانا نور الدين قال في ثورة غضبه: أيها الأحمق، مَن سمح لك بالتدخل في القضية؟ لقد تمكنتُ بعد محاولة شهرين متتاليين مِن إقناع المولوي نور الدين بمناقشة الموضوع على ضوء الحديث، وأنت حوّلتَ القضية إلى القرآن ثانية؟ وكان ميان نظام الدين إنسانا ورعًا، فأصيب بالذهول بقول البطالوي، فسكت برهة كالذي أصيب

بصدمة مفاجئة، ثم تأوّهَ وقال: أيها الشيخ، إذا كان الأمر كذلك فإني مع القرآن الكريم. فخرج مِن عند البطالوي فورًا وجاء إلى المسيح الموعود عليه السلام وبايعه. (حيات أحمد (أردو) للعرفاني ص ١٥٥)

فترى أنه لما كان موقف المسيح الموعود عليه السلام موافقًا للفطرة الإنسانية لم يستطع "ميان نظام الدين" مقاومته. هذا هو حال تعاليم القرآن الكريم، فكل حُكْم من أحكامه يراعي كل أنواع الطبائع والأمزجة، ومن المحال أن يقول شخص أن كذا وكذا من أحكامه غير صالح للعمل أو مخالف للفطرة الإنسانية. فكل حكم من أحكام القرآن كامل في حد ذاته، والعمل به سهلٌ. أما الأديان الأخرى فهي تفتقر إلى هذه الميزة، وهذا هو السبب الذي جعَل أتباعَها يطالبون الحكومات بإحداث التغييرات في قوانينهم الخاصة من حين إلى آخر لتلافي الخلل الموجود في تعاليم أديانهم. فالهندوس أيضا منجرفون في هذا التيار، ويريدون إعداد قوانين تتماشى مع أوضاع هذا العصر، والحق أن كل تعديل يحدثونه في قوانينهم إنما هو لتقليد أحكام القرآن، أما إذا انحرفوا عن تعاليم القرآن فلا بد لهم من العثار، ولا بد أن يروا نتائجه الوخيمة. إذن، فقوله تعالى ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يعني يا محمد، ألم نُهيّئ لك كل الأسباب اللازمة لمهمتك؟ لقد وهبنا لك أتباعًا حملوا عنك أعباءك، وأعطيناك تعليما ينفذ إلى الفطرة الإنسانية تلقائيا، دون أن يحول عائق في انتشاره بين الناس. عندما اشتد اضطهاد أهل مكة على المسلمين أراد أبو بكر الهجرة منها، فخرج ذات يوم مهاجرًا، فلقيه في الطريق أحد وُجهاء مكة وسأله عن قصده، فقال: إني أريد الهجرة من هذه البلدة. فقال الرجل: الهجرة! ألا تخرب المدينة التي يغادرها إنسان مثلك؟ ها إني أجيرك، فلن يتعرض أحد لك بسوء بعد اليوم. فرجع أبو بكر، وأعلن الرجل بين الناس أنه قد أجار أبا بكر. وكان أهل مكة يحترمون حق الجوار احتراما كبيرا، فلم يؤذوا أبا بكر بعد ذلك، فبدأ يعيش في مكة بحرية. وكان أبو بكر يماثل إبراهيمَ عليه السلام في طبعه الرقيق وإحساسه المرهف، فإذا قرأ القرآن في الصباح الباكر غلبته الرقة والحرقة والبكاء وبدأت الدموع تسيل من عينيه، فكانت النساء والولدان يجتمعون حول بيته لرؤية هذا المشهد المثير

مُصْغين إلى تلاوته، فإذا رأوا بكاءه ورِقّته وسمعوا تعاليم القرآن الكريم السامية، لم يتمالكوا أنفسهم وقالوا: ما أروعَه من كلام! وازداد تأثير تلاوته القرآن عليهم حتى خاف أهل مكة من إسلام أطفالهم ونسائهم لو استمر الوضع هكذا. فذهبوا إلى ذلك الكبير الذي أجار أبا بكر وطالبوه بسحب إجارته لأبي بكر وإلا سوف يفسد دينهم (البخاري: كتاب المناقب). إن هذا الحادث خيرُ دليل على مدى التأثير العظيم للقرآن الكريم.

ثم هناك حادث عمر ﷺ الذي خرج من بيته بنيّة قتل النبي ﷺ، ولكنه لما سمع أخته تقرأ القرآن الكريم سالت الدموع من عينيه، فخرج مِن توّه والسيف في يده، فلما أتى النبي ﷺ قال: ما وراءك يا عمر؟ قال: يا رسول الله، جئتُ لأنضمّ إلى زمرة غلمانك. (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر إسلام عمر)

إلى هذا التعليم القرآني المعجز يشير الله تعالى في هذه الآية ويقول لرسوله الكريم: لقد كنتَ تشعر بعبء ثقيل على قلبك وكنت تقول كيف أقنع الناس بهذا التعليم، فانظرْ كيف خفَّفْنا عنك هذا العبء تخفيفا.

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝

التفسير: والأمر الثالث الذي لا بد منه للنجاح أن يتوجه الناس إلى التعليم الجديد. الواقع أن لفت أنظار العدو هو الأهم، ولكن لا يثير المعارضة والعداء إلا التعليم الذي فيه آثار الغلبة والانتصار. الأغبياء يظنون أن المعارضة أمر سيئ، ولكنها خيرٌ في الحقيقة. إن طبائع الناس لا تثور إلا ضد ما يرون أنهم إذا لم يقاوموه لَحِقَهم ضرر وبطلتْ عقائدهم وأفكارهم. فما لم يتولد هذا الإحساس عند القوم لا يقومون لمعارضة شيء بشدة. عندما يعلن الأنبياء دعواهم يهبّ القوم كلهم ضدهم إذ يرون أن التعليم الذي يعرضونه سيصبح غالبا في نهاية المطاف. والحال نفسه بالنسبة إلى العلوم المادية الصادقة؛ فكلما عُرض على الناس بحث جديد عارضوه حتمًا لخوفهم أنهم إذا لم يعارضوه ثبت بطلان النظرية التي يتمسكون بها.

فعندما أعلن جاليلو أن الأرض تدور حول الشمس مخالفًا بذلك الاعتقادَ السائد القديم عارضه القسس حتى أفتى البابا بقتله لأنه ينشر بين الناس نظرية تتعارض مع الكتاب المقدس صراحة. فآذوه إيذاء شديدًا حتى اضطر ليعلن بين الناس: لقد ركب الشيطان عقلي وأضلّني السبيل على ما يبدو. إذ يقول الكتاب المقدس إن الشمس تدور حول الأرض، ولكن بدا لي أنا الأحمق أن الأرض تدور حول الشمس، وها إني أعلن أنه تبين لي أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، ولكن ما دام الكتاب المقدس يقول أن الشمس تدور حول الأرض فيبدو أن عقلي قد اختلّ ولعب به الشيطان. ففرح القُسس بإعلانه ظانين أنه قد تاب عن موقفه، والحق أن إعلانه دليل على أنه لم يتبْ فعلاً، بل قام بهذا الإعلان لإرضاء القسس بكلماتٍ خدعتهم، فظنوا أنه قد تاب عن نظريته.

فسواء في العالم المادي أو الروحاني، كلما عُرض على الناس أمر يتعارض مع معتقداتهم انبروا لمعارضته، إذ يرون أن انتشاره في العالم سيقضي على التعليم الذي ينشرونه بين الناس. لا شك أنهم يعترفون بالحقيقة في النهاية، ولكنهم يعارضونها في البداية باذلين كل ما في وسعهم لسحقها وللقضاء عليها. ومشيرًا إلى هذه المعارضة قال الله تعالى هنا ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. ورَفْعُ الذكر لا يعني أنه يصبح مقبولا بين القوم، بل المراد أنه سيُذكَر في كل مكان خيرًا أو شرًّا، مدحًا أو ذمًّا. وكأن الله تعالى يقول إنك تُذكر في كل مجلس ونادٍ وبيت وأسرة، فهناك ضجة بين القوم بسببك. فمنهم من يقول: كيف يقول محمد أن الأصنام لا حقيقة لها! لقد وجدنا آباءنا يعبدونها، فكيف نتخلى عنها لقوله؟ ومنهم من يقول: إن ما يقوله محمد حق، فإن هذه الأصنام لن تحرك ساكنا وإن ضربتموها بالنعال. بينما يقول الثالث: هذه الفتنة تتفاقم باستمرار، فعلينا أن نقول للناس أن محمدا أصبح مجنونا. ويقول الرابع: ما هذا الهراء الذي تقولونه؟ لو كان مجنونا لما اتبعه أهل العقل والرأي منا! فيقول الخامس: إنه ليس بمجنون، بل شاعر. فيقول بعضهم: كيف تسمونه شاعرا؟ انظروا إلى كتابه، فهل هو شعر؟ ويقول السابع: إنه ليس بمجنون ولا شاعر، بل كاهن يتنبأ كالكهّان. فيهبّ أحدهم قائلاً: كيف تسمّونه كاهنًا وهو يُكذِّبُ

الكهّان؟ باختصار، كانت هناك زوبعة من المعارضة بسبب دعوى الرسول ﷺ، فكان يُذكر في كل ناد ومجلس وبيت، ويقال في كل مكان أن محمدا قد أثار فتنة عظيمة ولا بد لنا من التصدي لها. وكان هذا الحماس للمعارضة وهذه الجهود للإساءة للنبي ﷺ دليلا على ما أودع الله تعالى تعاليمَه من جاذبية وروعة بحيث كان العالم يرى أنه لا بد من التصدي لها وإلا لقضت علينا.

هذا هو الحافز الثالث الذي لا بد منه للنجاح. فعندما يثير الناس ضجة وينبرون للمعارضة بشدة متخذين كل وسيلة لكبت هذا الصوت، تتوجه أصحاب النفوس الطيبة إلى بحث الأمر، فيؤمنون في النهاية بسبب هذه المعارضة.

جاء إلى قاديان في زمن المسيح الموعود عليه السلام شاعر وأديب كبير وكان قد ألّف قاموسًا نُشر منه مجلدان أو ثلاثة، وكان حاكم ولاية "رامبور" قد كافأه بمنحة شهرية على ذلك. فسأله المسيح الموعود عليه السلام: ما الذي وجَّهك إلى جماعتنا؟ فقال بكل بساطة: الشيخ محمد حسين البطالوي. قال عليه السلام: كيف؟ قال: كانت جريدة الشيخ البطالوي -إشاعة السنة- تصلنا باستمرار، وكنت أعرف أنه شيخ شهير في الهند كلها، وبمطالعة مجلته كنت أقول دائما إذا كان هذا الإنسان محبًّا صادقًا للإسلام فكان عليه أن يفتح مدرسة يعلّم فيها القرآن والحديث، ويدعو الناس للعمل بأحكام الإسلام، ولكنه بدلاً من ذلك صرَف جُلَّ اهتمامه إلى معارضة الأحمدية، فلا شك أن وراء الأكَمَة ما وراءها. فمعارضتُه هي التي دفعتْني إلى التحقيق. فاتصلت بأحد الأحمديين، فأعطاني "دُرّ ثمين"،✦ فلما قرأتُ فيه قصائدك في مدح النبي ﷺ قلتُ: ها هي أول كذبة المشايخ! إذ يقولون أن حضرة الميرزا يسيء إلى النبي ﷺ، مع أن الحبّ الذي يكنّه حضرته لرسول الله ﷺ لا يوجد له نظير في العالم قط. ثم قمتُ بمزيد من التحقيق وعرفت أن الأحمدية هي الحق.

وكل سنة أتلقى ما بين عشرة إلى عشرين رسالة بهذا المعنى، حيث يقول أصحابها إنهم قرأوا كتبًا ضد الأحمدية مما رغّبهم في قراءة منشوراتها، فلما قرأوها

✦ هي مجموعة قصائد أردية للمسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

وجدوا أن ما تعرضه الأحمدية هي العقائد الحقة الصادقة، وأن ما يقال ضدها كذب وزور كله، فبايعوا.

وإلى هذا يشير الله تعالى هنا بقوله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.. أي لقد مَنَنّا عليك منة كبيرة حيث تُذكَر في كل نادٍ. فيقول الساسة والتجار وعلماء الدين والكهان: ماذا سيحدث الآن وقد أعلن محمد دعواه؟ وكل من يسمع دعواك يقول لا بد أن يقع الآن أمر ما، ولا بد أن تقع في الدنيا ثورة. فهناك هيجان في طبائع الناس دفعهم للاهتمام بأمرك. ولا بد أن تكون نتيجته خيرا لك، لأنهم حين يتدبرون في أمرك سينكشف عليهم صدقك.

وخير مثال على ذلك أن "ورقة بن نوفل" كان يدعو إلى المسيحية بين أهل مكة قبل بعثة الرسول ﷺ، ولكنهم لم يولوه بالاً ولم يثيروا ضده ضجة، بل كانوا يمرون عليه ضاحكين (البخاري: كتاب بدء الوحي)، أما الرسول ﷺ فعندما رفع صوته في حق وحدانية الله قام العرب ضده من أقصى البلاد إلى أقصاها، وهبّ الجميع لسحقه. وكذلك كان زيد بن عمرو –هو ابن عم لعمر رضي الله عنه– يدعو الناس إلى وحدانية الله قبل دعوى النبي ﷺ، ولكنهم لم يعارضوه. وكان النبي ﷺ قد دعاه للطعام مرة، فقال أنا لا آكل طعام المشركين، فقال ﷺ: إني لم أشرك قط (أسد الغابة: زيد بن عمرو). فرغم أن الرجل كان موحدًا متشددًا إلا أن هؤلاء المشركين لم يقوموا ضده، ولكن الرسول ﷺ حين رفع صوته ضد الأصنام انبرى العرب كلهم يعارضونه لإدراكهم أن صوت زيد بن عمرو لم يستطع كسر أصنامهم، ولكن صوت محمد سيكسرها حتمًا.

باختصار، إن من معاني قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أننا قد وجَّهْنا عناية الناس إليك؛ حيث يقول الجميع أن أمرًا ما سيحدث الآن، لذا فلا بد لنا من مقاومة هذا الرجل.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أننا قد وضعنا لك القبولَ في الدنيا. الحق أن من أسباب النجاح أن يوضع للمرء آثار القبول في الدنيا، فقد ورد في الحديث أن الله تعالى إذا أحبَّ عبدًا أمر ملائكته أن يحبّوه ويُلقوا حُبَّه في قلوب

الناس، فيُوضَع له القبول في الدنيا شيئًا فشيئًا. فالله تعالى يقول لرسوله ﷺ إنهم يعترفون بعظمتك في قلوبهم رغم معارضتهم لك.

عندما تُوفيَ المسيح الموعود عليه السلام كتب كثير من المسلمين من غير جماعتنا والهندوس مقالات مشيدين به ومعترفين بعظمته (تاريخ أحمديت المجلد ٢ ص ٥٦٠ نقلاً عن جريدة "وكيل" الصادرة من أمرتسر، ومجلة "تهذيب النسوان"، وجريدة "زميندار"، مما يدل أن قلوبهم كانت تعترف بعظمته رغم معارضتهم له في الظاهر. وهذه الآية لا تتيسر للمفتري أبدا. إن أهل الدنيا يعارضون أمثالهم، ولكن معارضتهم تكون معارضة بحتة، بمعنى أنهم يعارضونهم بدون الاعتراف بعظمتهم، أما أنت يا محمد، فإن هؤلاء يعادونك من جهة، ومن جهة أخرى يعترفون بقوتك وعظمتك. إنهم يسمّونك كذابًا وفي الوقت نفسه يسمونك أمينًا، فكل من يسمعهم يصاب بالحيرة ويقول ما هذه الأقوال المتعارضة! يقولون إنه شاعر، ومع ذلك يقولون إن كلامه ليس بشعر، ويقولون إنه كاهن، ويعترفون أنه عدو للكهنة. إذًا فإنهم يتهمونك من ناحية، ويعترفون بعظمتك وصلاحك من ناحية أخرى.

كما أن في هذه الآية إشارةً إلى انتشار ذكر محمد ﷺ. ويتضح من التاريخ أن صيته ﷺ ذاع في الجزيرة العربية كلها بسرعة فائقة، فأخذ الناس يصدّقونه، فآمنَ به –وهو لا يزال بمكة– أبو ذر الغفاري من قبيلة غفار، وجماعةٌ من أهل اليمن، وثلةٌ من أهل المدينة، وهكذا انتشر دينه في مختلف الأمصار والبلاد.

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٧﴾

التفسير: النكرة تفيد التعظيم والتفخيم أيضًا في العربية، فالمراد من الآية أن هناك يسرًا عظيمًا بعد العسر حتمًا، نعم، هناك يسر عظيم بعد العسر يقينًا. وكأن المقصود هنا تعظيم اليسر والتأكيد عليه وليس ذكر العسر.

وقال بعض النحاة: إن تكرار اليسر هنا إشارةٌ إلى أن هناك يُسريْن لا يسرًا واحدا. العسر واحد، ولكن اليسر اثنان. ومعنى الآية لا شك أن بعد هذا العسر يسرًا عظيما، ولا جرم أنه يأتي بعد العسر يسر عظيم آخر. (فتح البيان)

وهذا المعنى يؤكده الحديث حيث ورد أن النبي ﷺ خرج من بيته مرة ضاحكا مسرورًا وقال: "لقد رأيت عُسرًا يجري وراء يسر✦، ولن يغلب عسرٌ يُسْرين". وهذا يعني أن مفهوم هذه الآية قد انكشف على الرسول ﷺ كشفًا، وقد أدرك أن العسر واحد واليسر يُسْرانِ.

السؤال الآن: ما هذان اليُسرانِ المذكوران هنا؟

اعلم أن الإنسان لا ينال السكينة الكاملة إلا إذا تيسرت له أسباب الاطمئنان ذهنيًّا وخارجيًّا. إذا تعرضَ المرء للرفض والمعارضة ظلَّ في قلق واضطراب نفسي ولم تتيسر له السكينة المنشودة وإن لم يتعرض للضرب والأذى الخارجي، ويبدو كأنه في اليسر من حيث الظاهر، وفي العسر من حيث الباطن. وقد لا يلقى المرء المعارضة في الظاهر، ولكنه يتعرض للضرب، فيقال إنه في العسر في الظاهر وليس من حيث الباطن. يقال أن مكّارا أقام وَكْرَه قريبًا من مزرعة فلاح، وجمع حوله أتباعه الذين كانوا يتسوّلون في القرى المجاورة، وكلّ مَن جاء هناك قالوا له: هذا هو الإله فاسجدْ له. كان الفلاح يرى هذا المشهد يوميًا، ولكنه لم يكن يستطيع منعهم لأنه وحيد لا يقدر على مواجهة حاشيته الجالسين حوله كل حين. وذات يوم وجد الفلاح أن الناس قد تفرقوا عن المكار، فاغتنم الفرصة ودخل عليه وجلس أمامه باحترام وقال له: أأنت الإله؟ قال: نعم، أنا الإله. فأخذ الفلاح بتلابيبه ولَكَمَه لكمةً قوية وقال: إذن، أنت الذي أخرجتَ روح أبي، ثم لكمه ثانية وقال: إذن، أنت الذي أخرج روح أمي، ثم لكمةً ثالثة، وقال: أنت الذي أخرج روح

✦ أقرب ما وجدناه بهذا المعنى هو قوله ﷺ: "أَبْشِروا أتاكم اليسر، لن يغلب عسرُ يسرين." (تفسير الطبري). (المترجم)

أختي. فلم يزل يسمي أقاربه الأموات ويوجّه إليه لكمة تلو أخرى. فخر المكارُ على قدميه يتوسل إليه قائلا: اتركْني سيدي، فأنا لست بإله.

فأحيانًا لا يعارض الناس المدعي ولا يسألونه أي دليل في الظاهر، ولكنهم إذا وجدوا الفرصة رفعوا عليه العصيّ. ومثل هذا الإنسان يكون في العسر في الظاهر، ولا يكون في العسر في الباطن. وأحيانًا يتمتع المرء بالاطمئنان في خارجه، ولكنه لا يجد السكينة في داخله. إنه يؤمن بتعليم دون أن يطمئن به قلبه، فيقول لا أدري إن كان حقا أم باطلا. إذن، فثبت أنه لا يحظى بالاطمئنان الكامل إلا من تيسر له الاطمئنان ظاهرا وباطنا، ولذلك يقول الله تعالى هنا يا محمد، لا شك أن الناس يؤذون أصحابك اليوم أذى شديدا، لكنا سنهيئ لهم السكينة بنوعيها قريبًا؛ السكينة النفسية والسكينة الخارجية؛ بمعنى أن كل فرد من جماعتك سيكون مطمئنا بأنه يتبع الحقّ والصدق ويسلك طريق النجاة، ولن تنتابه شبهة فيما إذا كان الطريق الذي يسلكه يوصله إلى الله أم لا. كما سنمتّعهم بالسكينة الخارجية أيضا، فنضع الحدّ لأذى العدو ونرفع عنهم نهائيا العسر الذي يعانونه اليوم، ونكتب لهم النجاح. فالمراد من يسرين هنا سكينة النفس وسكينة الظاهر، أي سيرفع الله كل شك وشبهة من قلوبهم ويثبتهم على صخرة اليقين لكي يكونوا مؤمنين حقًّا، كما يجلب لهم السكينة الظاهرة فيرفع عنهم ما يصبّ عليهم العدو من ظلم وأذى، ويجعلهم ملوكا غالبين فلا يقدر على إيذائهم أحد.

والمفهوم الثاني لليسرين هو نِعَمُ الدنيا والآخرة، أي سوف يهَبُكم الله نعم الدنيا ونعم الآخرة. ولو قيل ما الدليل على أنهم ينالون نِعَم الآخرة؟ فالجواب أن نعمة الرؤيا والكشوف والإلهامات التي يمنّ الله تعالى بها على المؤمنين بحسب كفاءاتهم لدليل على أن ما يعدهم الله من نعم الآخرة وعدٌ حق أيضا.

ومن معاني هذه الآية أنه كلما أتت على الإسلام فترة عسر وضيق أردفها الله بفترة رقي جديد.. أي بعد قيام الإسلام ونجاته من الانقراض سوف يهيئ الله تعالى أسبابا متجددة لرقيه بعد كل فترة انحطاط، ومن المحال أن يتغلب عليه الكفر للأبد.

وكأن الله تعالى يَعِد هنا بحفظ الإسلام وعنايته ويبشر المؤمنين أن تأييد الله سيكون حليفًا لهذا الدين دائما، وأنه سيظل ينهض بعد كل فترة انحطاط.

كما يمكن أن يكون اليُسْران إشارةً إلى البعثة المحمدية والبعثة الأحمدية، حيث بيّن الله تعالى أن الكفر سيموج في تلك الفترة موجًا، ولكننا سنبعث محمدًا مرةً أخرى بعثةً روحانية للقضاء على موجة الكفر.

فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

فرغتَ: فَرَغَ من العمل: خلا ذَرْعُه. وفرَغ له وإليه: قصَد. وفرَغ فلان فروغًا: مات. وفرَغ الإناءُ: خلا. وفرَغ فلان من الشيء: أَتَمَّه. (الأقرب)

فانْصَبْ: نَصِبَ الرجلُ نَصَبًا: أعيا. ونصَب في الأمر: جَدَّ واجتهدَ. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا أمرًا عجيبا، ذلك أن الفراغ يعني عادةً حلُّ المشكلة وانتهاءُ العمل، لكن الله تعالى يقول لرسوله هنا فإذَا فَرَغْتَ فَاجتهِدْ ثانية. والسؤال هنا: ما دام سيجتهد بعد الفراغ ثانية، فأين الفراغ؟

الواقع أن هذه الآية نبوءةٌ عن ازدهار الإسلام، حيث بيّن الله هنا سموّ الهدف الذي جعله لرسوله. أحيانًا يقع في الدنيا انقلاب سريع ولكنه لا يكون ثابتا، بل سرعان ما ينتهي، وعلى النقيض تقع في الدنيا ثورات بالتدريج، ولكنها تغيِّر وجهَ العالم لفترة طويلة. والله تعالى يخبر هنا رسوله ﷺ أن تقدُّمَك سيكون تدريجيا، ولكن نتائج جهودك تكون ثابتة دائمة. ستواجه في البداية مشكلة، وبعد التغلب عليها والصعود إلى مقام أرفع ستواجهك مشكلة أخرى، فمِن واجبك أن تذلِّلها وتصل إلى مقام أرفع، لتجد بعدها مشكلة ثالثة لتتغلب عليها وتزداد رفعة بدون توقف. وكأنها عملية مستمرة في الرقيّ لا نهاية لها. فلن تأتي في حياتك مرحلة بحيث تظن أنك قد أتممتَ مهمتك وبلغت الرفعة المنشودة. فمن كان غايته الصعود إلى قمة ارتفاعها ٥٠٠٠ قدم، فإنه إذا وصل إليها جلس هنالك قائلا: ها قد بلغتُ

غايتي، أما الذي غايته أن يصل إلى كل قمة باستمرار، فلن يتوقف عند أي قمة، بل سيظل يصعد من قمة إلى أخرى بدون توقف. والحق أنه لا نهاية للمهمة العِلمية والعَملية التي أناطها الله برسوله الكريم، فلذلك يخبر الله هنا رسوله بأننا لم نجعل لك غاية محدودة، بل فتحنا عليك باب ترقيات غير عادية، فكلما أنجزت مهمة فتذكَّرْ أن أمامك مهمة أخرى، وإذا أنجزت الأخرى فاعلمْ أن بعدها مهمة غيرها تنتظرك، فمن واجبك أن تنجزها وتظل في الصعود بعد الصعود، والرفعة بعد الرفعة بكل ما أوتيت من قوة، فلا تتوقفْ خطواتك عند مقام واحد. وكأن في قوله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ إشارةً إلى أن رحلة النبي ﷺ رحلة لا نهائية، حيث أخبر الله تعالى أن أعماله ﷺ ستظل تزداد، ولن يأتي عليه وقت يمكن القول فيه إنه قد بلغ غايته وفرغ من عمله. كلا، بل إذا فرغ من مهمة بدأتْ أخرى، وإذا فرغ منها بدأت ثالثة.

كنا نلعب في طفولتنا لعبةً تبيّن هذا المفهوم جيدًا؛ فكان أحدنا يجلس على الأرض فيضع الآخرون على رأسه قبضات أيديهم بصورة عمودية كأنها منارة، فكان أحدنا يقول: كم بقي من الثقل؟ فيجيب الآخر: إذا أزلتَ قبضة فالقبضة الأخرى جاهزة. كذلك يخبر الله رسوله الكريم أننا قد قدّرنا لك ترقيات غير عادية، فكلما حللت معضلة سترى أمامك معضلة أخرى لتحُلّها وتتقدم إلى مزيد من مقامات القرب والمحبة. فليس هناك مقام يمكن اعتباره آخر مقام في رحلة رقيك. كلا، بل عندما تصل إلى مقام سينفتح أمامك باب جديد للرقي، وهكذا لن تنتهي ترقياتك أبدا. نحن نَعِدُك بالنجاح وإزالة كل الصعاب، ولكن ينبغي أن لا تظن بعد أي نجاح وانتصار أن مهمتك قد انتهت. كلا، بل ستواجه محنًا جديدة بعد كل فتح، لأن من أسرار الرقي الروحاني أن يواجه المرء صعوبات جديدة ليحلّها، فلا تظنّنّ أن هجمات الشيطان ستكون من نوع واحد، وأنه يكفيك أن تهزمه في هجوم معين، بل إن صولات الشيطان شتى، فهي صولات عِلمية وعَملية وفكرية وسياسية واقتصادية، وإنه لا يزال يصول صولة تلو أخرى باستمرار؛ فإذا

قتلتَ عدوًا وتقدمتَ، فعليك أن تقتل عدوا آخر وتتقدم، ثم ثالثا ورابعًا، وهكذا تزيح من طريقك عدوًا بعد عدوّ، لتحلِّق في سماوات قرب الله تعالى بسرعة شديدة.

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَبْ ﴿٨﴾

التفسير: أي يا محمد، حين تعبُر هذه القمم واحدة بعد أخرى، ستجدنا هناك. إننا نقيم في القمم، ولا يمكن أن يصل إلينا إلا من يبذل جهدًا لا حدود له، فلا تتوقّفَنَّ عند مقام في سفر وصالنا ولقائنا، بل عليك أن تتقدم باستمرار، فإذا بلغتَ المقام العيسويّ فلا تتوقف عنده بل اصعدْ، وإذا بلغتَ المقام الموسوي فلا تتوقف عنده بل اصعدْ، إذا صعدتَ إلى السماء الأُولى فلا تتوقف عندها، بل شمِّرْ عن ساعديك لتصل السماء الثانية، فإذا بلغتَها فاجتهدْ للصعود إلى الثالثة، فإذا صعدتَ إليها، فجاهِدْ للوصول إلى السماء الرابعة فالخامسة فالسادسة فالسابعة، ثم اسعَ لاجتيازها أيضا لتعرج أكثر وأكثر، وستجدنا ننتظرك هناك، وسوف تلقانا وتنال جزاءك.